خالد بن الوليد

فارس الإسلام

وسيف الله المسلول

كتبه

محمد بيومى



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: خالد بن الوليد

إعـــــداد: محمد بيومي

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد

القاهـرة : ٤ ميـــدان حليـم خلــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

tokoboko_5@yahoo.com

من هو خالد بـن الوليد؟

هــو: أبو سليمان، خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب.

فهو يجتمع مع النبي ﷺ في مرة.

أمـــه: هـى عصـماء، لبابـة الصـغرى بنـت الحـارث بـن حـزْن الهلالى.

وهى: أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ.

وهـى أيضـا أخـت لبابـة الكبـرى، أم الفضـل زوج العبـاس بـن عبـد المطلـب عـم النبـي ﷺ، فهـو ابـن خالـة عبـد الله بـن عبـاس بـن عبد المطلب رضي الله عنه.

وفى الصحيحين عن أبى أمامـة بـن سـهل حنيف الأنصـارى: أن عبد الله بن عباس أخبره: أن خالد بن الوليد الذي يُقال لـه: سيف الله أخبره أنه دخل مع رسول الله ﷺ علـى ميمونـة زوج النبـي ﷺ وهـى خالته وخالة ابن عباس، فوجد عندها ضبا محنوذا [1] قدمت به أختها حُفيدة بنـت الحـارث من نجد، فقدمت الضـب لرسول الله ﷺ، وكـان قلما يقدم إليه طعام حتى يُحدِّث به ويُسَمَّى لـه، فـأهوى رسـول الله ﷺ يده إلى الضب، فقالت امرأة من النسوة الحضور[2]: أخْبرن رسـول الله ﷺ بما قدمتن له قلن: هو الضـب يـا رسول الله، فرفـع رسـول الله

(١) الضب: دويبة تشبه الجرذون، لكنه أكبر من الجرذون، ومحنوذ: أى مشوى.
(٢) هى ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها كما عند الطبرانى في " الأوسط " بسند صحيح.

ﷺ يده، فقال خالد بن الوليد: أحرام الضب يا رسول الله؟ قال:﴿لا ولكنه لم يكن بأرض قومى[١] فأجدنى أعافه﴾ [٢].

* * *

مكانة خالد رضي الله عنه وأسرته في الجاهلية

ينتسب خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قبيلة بنى مخزوم، وهى قبيلة اشتهرت بين قبائل العرب عامة، وقريش خاصة بالشرف والسؤدد وعزة النفس، وقد ورث خالد بن الوليد رضي الله عنه هذه الصفات عن آبائه وأجداده، فقد كان أبوه، الوليد بن المغيرة سيدًا من سادات قريش، وجوادًا من أجوادها، وكان يُلقب بالعدل، لأن قريشا بأسرها كانت تكسوا الكعبة في الجاهلية عاما، ويكسوها الوليد وحده عاما،أى أنه كان يعدل قريشا مجتمعة.

وكانت العرب تعظم الوليد بن المغيرة، كما ورد في قول الله تعالى عن المشركين:{وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾} [الزخرف: ٣٠، ٣١]، ويقصد المشركون بالقريتين: مكة والطائف، ويعنون بالرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى[٣].

وكان الوليد يلقب أيضا بالوحيد، وقد ذكر في القرآن الكريم بهذا

---

(١) قال ابن حجر: المراد بقوله ﷺ:﴿بأرض قومى﴾ قريشا فقط فيختص النفى بمكة وما حولها، ولا يمنع ذلك أن تكون موجودة بسائر بلاد الحجاز، وقد وقع في رواية يزيد بن الأصم عند مسلم " دعانا عروس بالمدينة فقرب إلينا ثلاثة عشر ضبا فآكل وتارك "، الحديث، فبهذا يدل على كثرة وجدانها بتلك الديار.

(٢) رواه البخارى في " الذبائح والصيد " (٥٥٣٧)، ومسلم في " الصيد والذبائح " (١٩٤٥).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤ / ١٢٧).

اللقب كما في قوله الله عز وجل:{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)} [المدثر: ١١ - ٢٦].

وسبب نزول هذه الآيات أن الوليد بن المغيرة كان قد شهد أن القرآن الكريم ليس من كلام البشر، وأنه كلام رب العالمين، فانزعجت قريش من قوله هذا، وخشوا أن ينتشر هذا الكلام بين الناس فيتابعون الوليد عليه، فطلبت قريش منه أن يغير كلامه!!، فجعل الوليد يفكر فيما يقوله عن القرآن ومحمد، ثم خرج على الناس زاعما أن محمدا ﷺ ما هو إلا ساحر، وأن القرآن إنما هو سحر يؤثره عن غيره!!.

قال القرطبي – رحمه الله –: " قوله تعالى:{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} { ذَرْنِي} أي دعني، وهى كلمة وعيد وتهديد،{وَمَنْ خَلَقْتُ} أي دعني والذى خلقته وحيدًا، أي: خلقته وحده، لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته، والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه، وإنما خُص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول ﷺ. وكان يسمى الوحيد في قوله.

قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد، فقال الله تعالى:{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} بزعمه، لا أن الله تعالى صدّقه بأنه

وحيد.

قولـه تعـالى:{إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} يعنـى: الوليـد فكـر فـي شـأن النبـي ﷺ والقـرآن،{وَقَدَّرَ} أى هيـأ الكـلام فـي نفسـه، والعـرب تقـول: قدرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما نزل:{حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾} [غافر: ١ - ٣]، سمعه الوليد يقرؤها، فقال: والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزينا، فقال له: مالى أراك حزينا؟ فقال له: وما لى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينوك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبى كبشة[١]، وابن أبى قحافة[٢] لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وتكبر[٣]، وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالى، واللات والعزى ما بى حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق[٤]؟ قالوا: لا والله.

---

(١) أبو كبشة: هو زوج حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ وكانت قريش تنسب النبي له للذم والتحقير، وقيل: إن أبا كبشة هو أحد أجداد النبي المغمورين، وكانت العرب إذا أرادت تحقير شخص نسبته إلى أحد أجداده المغمورين.

(٢) ابن أبى قحافة: هو أبو بكر الصديق ☺، وكان الوليد بن المغيرة قد سمع القرآن من أبى بكر أيضا.

(٣) انظر كيف استثار أبو جهل غضب الوليد حتى جعله يغير عقيدته، ويفترى على الرسول ﷺ.

(٤) يخنق: أى يصرع.

قال: فتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه كذبا قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر!، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه{فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ} أى ما هذا الذي أتى به محمد{إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} أى يأثره عن غيره.{إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ} أى ما هذا إلا كلام المخلوقين، تختدع به القلوب كما تختدع بالسحر(١).

وأما إخوة خالد ﷺ، فقد أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى:{وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)} [المدثر: ١٣]، فقد أنعم الله عز وجل على الوليد ابن المغيرة بكثرة البنين، ومع ذلك قال ما قال على خلاف ما يعتقد.

قال الألوسى – رحمه الله –:{وَبَنِينَ شُهُودًا} أى: حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة لكونهم مكفيين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم. واختلف في عددهم، فعن مجاهد أنهم عشرة، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد، وخالد وهشام، وقد أسلم هؤلاء الثلاثة، والعاص وقيس وعبد شمس وعمارة(٢).

قال مقاتل: فمازال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك(٣).

(١) تفسير القرطبى (١٠ / ٢٣٢ - ٢٣٧) باختصار. ط مكتبة الإيمان بالمنصورة، بتحقيقى.
(٢) " روح المعانى " (١٥ / ١٥٣) باختصار يسير، ط دار الفكر.
(٣) تفسير القرطبى (١٠ / ٢٣٣).

وأما أعمام خالد بن الوليد ﷺ، فهم: هشام بن المغيرة، وهو قائد بنى مخزوم في حرب الفجار، وكان يقال له فارس البطحاء، وذكر الزبير ابن بكار أن العرب كانت تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة عم خالد سبع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة[١]، فأرخوا بها. ولما مات هشام حزنت عليه قريش لدرجة أنهم لم يقيموا سوقا بمكة ثلاثة أيام، وهو الذي قال فيه الشاعر:

وأصبح بطن مكة مقشعرا ::: كأن الأرض ليس بها هشام

وأما عمه الفاكه بن المغيرة، فقد كان من أكرم العرب في زمانه، وكان قد أعد بيتا للضيافة يستقبل فيه الضيوف في أى وقت من غير إذنه.

وأما عمه حذيفة بن المغيرة، فقد كان أحد الأربعة الذين أخذوا بطرف الرداء الذي وضع فيه الحجر الأسود لكى يضعه الرسول ﷺ في مكانه من الكعبة.

وهكذا نشأ خالد بن الوليد ﷺ في هذه البيئة التي كونت شخصيته حتى صار من أشجع فرسان العرب في الجاهلية وفى الإسلام.

قال ابن الأثير – عن خالد ﷺ –: " كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكان إليه القبة وأعنَّة الخيل في الجاهلية، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب " [٢].

---

(١) أى أعادوا بناءها بعد أن هدمها سيل جارف.
(٢) " أسد الغابة " (٢ / ٩٣).

قال ابن حجر: " وشهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية " [١]، ولا شك أن تقديم قريش لخالد في مقدمة الجيش يدل على شجاعته وبسالته في القتال من ناحية، ويدل على مدى عدائه للإسلام في ذلك الوقت من ناحية أخرى، ونلمس هذا الأمر من موقف خالد ابن الوليد رضي الله عنه في غزوة أحد قبل إسلامه، فقد كان خالد هو قائد فرسان المشركين في هذه الغزوة. وكان النبي ﷺ في هذه الغزوة قد وضع خطة لجيش المسلمين وانتقى من الجيش خمسين مقاتلا من الرماة الماهرين وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادى قناة - وعرف هذا الجبل بجبل الرماة - وقال لهم:﴿احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم﴾.

ولما بدأت المعركة، والتقى الجمعان، انتصر المسلمون على المشركين، وعندما رأى الرماة هذا النصر، تركوا موقعهم، ونزلوا يشاركون إخوانهم في جمع الغنائم، وقد تسبب ترك الرماة لموقعهم في فتح ثغرة انتهزها خالد بن الوليد، فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة جيش المسلمين وباغتهم وأنزل بهم الهزيمة.

وقد انتدبت قريش خالدًا أيضا لمواجهة الرسولﷺ وأصحابه في وقعة الحديبية. وكان النبي ﷺ قد خرج هو وألف وأربعمائة من أصحابه سنة ست للهجرة من المدينة قاصدين مكة لتأدية مناسك العمرة، وعندما علمت قريش بقدوم النبي إلى مكة عقدوا مجلسا

(١) " الإصابة في تمييز الصحابة " (٢ / ٢١٥) ط. دار الكتب العلمية.

وقرروا فيه منع الرسول ﷺ وأصحابه من دخول مكة، وانتدبوا خالد بن الوليد للقيام بهذه المهمة، فخرج خالد على رأس مائتى فارس، ورابطوا بكراع الغميم[١]، في الطريق الرئيسى الذي يوصل إلى مكة، وقد حاول خالد ابن الوليد صد المسلمين عن مكة عند عسفان[٢]، فقام بفرسانه أمام المسلمين، ثم رأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فأراد أن يهجم عليهم على غرة، ولكنه لم يفعل، ثم قرر أن يميل على المسلمين، وهو يصلون العصر، ميلة واحدة، لكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، فلم يستطع خالد تنفيذ خطته!!.

وكما كان خالد بن الوليد ﵁ فارسًا شجاعًا في الجاهلية، كان أيضا كذلك بعد إسلامه، وقد قال النبي ﷺ:﴿خيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام...﴾.

* * *

إسلام خالد بن الوليد ﵁

اختلف المؤرخون وأصحاب السير في وقت إسلام خالد بن الوليد ﵁، فذهب البعض إلى أنه أسلم سنة سبع للهجرة، وذهب آخرون إلى أنه أسلم سنة ثمان للهجرة، وذلك اعتمادا على ما حدَّث به خالد نفسه فيما رواه ابن عساكر بإسناده عن محمد بن عمر الواقدى، قال: حدثنى يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: سمعت أبى يحدث يقول: قال خالد بن الوليد: لما أراد الله بى من

(١) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال. " معجم البلدان " ياقوت الحموى (٧ / ٢٢٦).
(٢) عسفان: مكان بين الجحفة ومكة.

الخير ما أراد وقذف في قلبى حب الإسلام، وحضرنى رشدى، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإنى أرى في نفسى أنى موضع في غير شئ، وأن محمدا سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسفان فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر آمنا منا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرة، فاطلع على ما في أنفسنا من الهموم به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعا، وقلت: الرجل ممنوع، وافترقنا وعدل عن سنن خيلنا[١]، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية، ودافعته قريش بالرواح[٢] قلت في نفسى: أى شيء بقى، أين المذهب؟ إلى النجاشى؟ فقد اتبِّع محمدًا وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابع أو أقيم في دارى فمن بقى؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية [٣] فطلبنى فلم يجدنى، فكتب إلى كتابا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإنا لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن

---

(١) أى: عن وجهنا.
(٢) الرواح: المساء.
(٣) كانت عمرة القضية بعد عمرة الحديبية التي صُد النبي ﷺ وأصحابه عنها، وتسمى أيضًا عمرة القضاء، وعمرة القصاص.
قال ابن حجر: اختلف في سبب تسميتها عمرة القضاء، فقيل: المراد ما وقع عليه الصلح، ولذلك يقال لها عمرة القضية، قال أهل اللغة: قاضى فلان فلانًا عاهده، وقاضاه عاوضه، فيحتمل تسميتها قصاصًا، قال الله تعالى: {ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ} [البقرة: ١٩٤]، قال السهيلي: تسميتها عمرة القصاص أولى، لأن هذه الآية نزلت فيها.

الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام جهله أحد، وقد سألني رسول الله ﷺ فقال: ﴿أين خالد؟﴾ فقلت: يأتي الله به، فقال: ﴿ما مثل خالد جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه، فقد فاتتك مواطن صالحة﴾، قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني مقالة رسول الله ﷺ.

قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر، قال: فذكرتها، فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه الشرك، فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس[1]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف، فأبى أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدا، فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترا، قتل أبوه وأخوه ببدر.

قال: فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ما ذكرت لك، قال: لا أذكره، وخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي تخرج إليّ إلى أن ألقى عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق ولو ذكرت له ما أريد، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أذكّره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل

(١) أي: هم قليل، يشبعهم رأس واحد.

من ساعتى، فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر لوصُبّ عليه ذنوب[١] من ماء خرج، قال: وقلت له نحوا مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتى بفج مناخة[٢]، قال: فاتّعدت أنا هو بيأجج[٣] إن سبقنى أقام، وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سُحره، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدّة، فنجد عمرو ابن العاص بها، فقال: مرحبا بالقوم، قلنا: وبك، قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام، واتباع محمد، قال: وذاك الذي أقدمنى، قال: فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرة ركابنا، وأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا، فلبست من صالح ثيابى، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعت المشى، فطلعت، فما زال يتبسم إلىّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **﴿الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً، ورجوت أن لا يسلّمك إلا إلى خير﴾**. قلت: يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق، فادع الله يغفرها لى، فقال رسول الله ﷺ:**﴿الإسلام يجب ما كان قبله﴾**، قلت: يا رسول الله على ذلك، فقال:**﴿اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك﴾**، قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ،

(١) الذنوب: الدلو الكبير.
(٢) فج مناخة: واد بمكة.
(٣) يأجج: موضع على ثمانية أميال من مكة.

وكان قدومنا في صفر من سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بى أحدًا من أصحابه فيما حَزَبَه [١] " [٢].

وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: ما عدل بى رسول الله ﷺ، وبخالد أحدا في حربه منذ أسلمنا[٣].

* * *

(١) حزبه: أى أهمه.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٩/٣٥٠): رجاله ثقات.
(٣) رواه ابن عساكر في " تاريخ دمشق " (١٦ / ٢٢٦ - ٢٢٨) ط دار الفكر، بيروت، و " الطبقات " لابن سعد (٤ / ١ - ٢).

الغزوات التــي شــارك فيهــا
خالد بن الوليد رضي الله عنه

خالد بـن الوليـد

نذر خالد بن الوليد نفسه للجهاد في سبيل الله، منذ اليوم الأول لإسلامه، وكان لا يعدل بالجهاد في سبيل الله شيئا، ويقول: ما من ليلة يُهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أحب إلى من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أصبِّح فيها العدو[١].

وقد حارب خالد ﷺ في عدة غزوات في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته وهى:

* * *

غزوة مؤتة

غزوة مؤتة هى أعظم معركة خاضها المسلمون في حياة النبي ﷺ، وكانت هذه الغزوة[٢] في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

وسببها: أن رسول الله ﷺ كان قد بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى الشام إلى ملك بصرى[٣] يدعوه فيه إلى الإسلام، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى - وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر الروم - فأوثقه رباطًا ثم ضرب عنقه، ولما علم النبي ﷺ بذلك أرسل جيشًا إلى الشام قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأوصاهم أن يذهبوا إلى حيث قتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم، ثم ذكرهم ﷺ بآداب القتال، وقال

(١) رواه أبو يعلى، وقال الهيثمى في " مجمع الزوائد (٩ / ٣٥٠) " : رجاله رجال الصحيح.
(٢) أطلق كثير من المؤرخين وأصحاب السير على معركة مؤتة اسم غزوة تغليبًا، وإلا فهى سرية لأن الغزوة هى التي يخرج فيها الرسول ﷺ.
(٣) بصرى: من أعمال دمشق.

لهم:﴿اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً، ولا شجرة، ولا تهدموا بناء﴾.

ثم جعل ﷺ زيد بن حارثة أميرا على الجيش، وقال:﴿إن أصيب زيد ابن حارثة، فيكون الأمير من بعده جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب جعفر، فيكون الأمير من بعده عبد الله بن رواحة﴾.

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه من جنود هذا الجيش، وشيعهم رسول الله ﷺ، وودعهم، ثم انصرف الجيش إلى بلاد الشام، فلما بلغوا معان من أرض الشام، أتاهم الخبر أن هرقل ملك الروم قد خرج لملاقاتهم ومعه مائة ألف مقاتل من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى أهل الشام من لخم وجذام وقبائل قضاعة، فأقام المسلمون في معان ليلتين، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فيأمرنا بأمره، أو يمدنا بجنود. فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا قوم، إن الذي تكرهون للذى خرجتم تطلبون - يعنى الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهى إحدى الحسنيين، إما نصر، وإما شهادة، فوافقه الجيش على هذا الرأى، ونهضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء[1]، لقوا جيش هرقل، فاتجهوا إلى ناحية قرية مؤتة، وهناك دارت المعركة بين الفريقين واستلم الراية زيد ابن حارثة رضي الله عنه، وجعل يقاتل بضراوة حتى قُتل، فأخذ الراية من بعده جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه، وقاتل ببسالة شديدة حتى إذا أرهقه القتال نزل عن فرسه، وقيل: إنه عقرها، فقاتل حتى قطعت

(١) التخوم: حدود الأرضين التي تقع بين أرض وأرض.

يمينه، فأخذ الراية بشماله وقاتل حتى قطعت، فاحتضن الراية وظل يقاتل حتى قُتل[١]، فأخذ الراية من بعده عبد الله بن رواحة ﷺ. وظل يقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم الأنصارى، وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال: لا، فاصطلحوا على خالد بن الوليد.

وروى الطبرانى كما في " فتح البارى " من حديث أبى اليسر الأنصارى قال: " أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد الله بن رواحة، فدفعها إلى خالد بن الوليد وقال: أنت أعلم بالقتال منى " فأخذها خالد، وقاتل بشجاعة نادرة حتى إنه قال: " لقد انقطعت في يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى في يدى إلا صفيحة يمانية " [٢].

ولما كان جيش الروم يزيد على جيش المسلمين في العدد أضعاف كثيرة، قام خالد ﷺ بوضع خطة أثناء المعركة تقوم على مناورة الرومان حتى يتمكن المسلمون من الخروج من المعركة دون خسائر.

وقد أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ بما حدث في المعركة، فأخبر النبي ﷺ أصحابه في المدينة، وقال لهم:﴿**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها**

(١) وقد عوّضه الله عن قطع يديه بجناحين يطير بهما في الجنة. وروى البخارى (٤٢٦٤) عن= =عامر الشعبى قال: كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين.
(٢) رواه البخارى في " المغازى " (٤٢٦٥) باب غزوة مؤتة.

خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له﴾ [(١)].

وفي رواية:﴿ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم﴾[(٢)].

ومنذ ذلك الوقت أصبح خالد بن الوليد يدعى بسيف الله، ثم إن النبي ﷺ مدح صنيع خالد عندما انحاز بجيش المسلمين من أرض المعركة، وسمى ذلك فتحا.

قال صاحب " **الرحيق المختوم** " : " اختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا، ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد ابن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تلقى الرعب في قلوب الرومان، حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غيّر أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرته، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد فرغبوا وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة يتأخر المسلمون قليلا قليلا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم في الصحراء.

---

(١) رواه البخارى في " الجهاد " (٢٧٩٨) باب تمنى الشهادة عن أنس ﷺ.
(٢) رواه البخارى في " المغازى " (٤٢٦٢) باب غزوة مؤتة.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة.

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا، أما الرومان فلم يعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، أنها ألقت العرب كلهم في الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية " (١).

(١) " الرحيق المختوم " صفى الرحمن المباركفورى (ص ٣٣٨ - ٣٣٩).

فتح مكة

في السنة السادسة من الهجرة خرج النبي ﷺ ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة لأداء العمرة.

وعندما علمت قريش بذلك قرروا منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة بأى طريقة كانت، وطلب المشركون من خالد بن الوليد[١] أن يتولى صد المسلمين عن دخول مكة، فخرج خالد ومعه مائتا فارس لملاقاة المسلمين، ورابط خالد بجيشه في كراع الغميم، وهو الطريق الرئيسى الذي يوصل إلى مكة.

ولما ورد الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ وهو بعسفان قرر أن يسلك طريقا آخر حتى يجنب الصحابة القتال لأنهم خرجوا بدون سلاح.

ولما علم خالد بأن النبي ﷺ سلك طريقا آخر أسرع إلى قريش يخبرهم بذلك.

وعندما اقترب النبي ﷺ من مكة نزل في قرية الحديبية[٢]، فبركت ناقة النبي ﷺ، وامتنعت عن السير، فقال أصحاب النبي ﷺ: خلأت القصواء[٣]، فقال رسول الله ﷺ: **﴿ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها﴾**.

(١) كان خالد في ذلك الوقت لم يسلم.
(٢) الحديبية: قرية قريبة من مكة، سميت بذلك لبئر فيها تسمى الحديبية.
(٣) خلأت: بركت وحرنت عن المشى، ولا يقال ذلك إلا للناقة.

وبينما النبي ﷺ في الحديبية أرسلت إليه قريش سهيل بن عمرو لعقد صلح بينهما، فوافق النبي ﷺ على عقد هذا الصلح، وتم الاتفاق على بنوده الآتية:

١- أن يرجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ثم يأتون في العام المقبل لأداء العمرة.

٢- وضع الحرب بين الطرفين لمدة عشرة أعوام.

٣- أن من جاء من الكفار إلى المسلمين - من رجل أو امرأة - رده المسلمون إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًا لا يرده الكفار إلى المسلمين.

٤- من أراد أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أى من الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، وأن أى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق.

وكانت قبيلة خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ، ودخلت قبيلة بنى بكر في عهد قريش، وكان بين القبيلتين ثأر قديم، فقام بنو بكر بالاعتداء على خزاعة، قال ابن إسحاق: فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يـــا رب إني ناشـــد محمـــدًا ::: حلــف أبينــا وأبيــه الأتلــدا[١]
قد كنــتم وُلــدا وكنــا والــدًا ::: ثم أســلمنا فلــم نــترع يــدا
فانصر هــداك الله نصــرًا اعتــدا ::: وادع عبــاد الله يــأتوا مــددا[٢]
فــيهم رســول الله قــد تجــردا ::: إن سيم خسفًا وجهــة تربــدا[٣]
في فيلق كــالبحر يجــري مزبــدًا ::: إن قريشًــا أخلفــوك الموعــدا[٤]
ونقضــوا ميثاقــك الموكــدا ::: وجعلوا لي في كل كداء رصــدا[٥]
وزعموا أن لست أدعــو أحــدًا ::: وهــم أذل وأقــل عــددا
هــم بيتونــا بــالوتير هجــدًا ::: وقتلونــا ركعًــا وســجدا[٦]

فقال رسول الله ﷺ :﴿نصرت يا عمرو بن سالم﴾، ثم عرض لرسول الله ﷺ هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[٧].

" ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبره بمن أصيب منهم، وبمظاهرة – أي معاونة – قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة " [٨].

وكان هذا الغدر هو سبب نقض النبي ﷺ لصلح الحديبية، وعزمه على فتح مكة، فخرج مع عشرة آلاف من أصحابه من المدينة في

(١) ناشد: طالب. والأتلد: القديم.
(٢) نصرًا اعتدا: أي حاضرًا. والمدد: العون.
(٣) قد تجردا: معناه: شمَّر وتهيأ لحربهم. وسيم خسفًا: معناه: طلب منه وكلفه. والخسف: الذل. وتربد: تغير.
(٤) الفيلق: العسكر الكثير.
(٥) كداء: موضع بمكة، ورصدا: جمع راصد، وهو الذي يترصد للأمر ويطلبه.
(٦) الوتير: اسم ماء. وهجد: جمع هاجد ويطلق على النائم أو المستيقظ فهو من الأضداد.
(٧) " السيرة النبوية " لابن هشام (٢١/٤ - ٢٢) باختصار يسير.
(٨) " الرحيم المختوم " (ص ٣٤٢).

رمضان السنة الثامنة للهجرة، ونظم النبي ﷺ الجيش، فجعل خالد بن الوليد على ميمنة الجيش، والزبير بن العوام على ميسرته.

واختلف في دخول خالد بن الوليد إلى مكة هل دخلها من أسفلها أم من أعلاها، فقد روى البخارى عن عروة بن الزبير قال: وأخبرنى نافع بن جبير بن مطعم، قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية، قال: وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء، ودخل النبي ﷺ من كُداء، فقتل من خيل خالد بن الوليد ﷺ يومئذ رجلان: حُبيش بن الأشعر، وكُرزُ بن جابر الفهرى " (١).

قال ابن حجر – رحمه الله –: " قوله: (وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء) أى بالمد، ودخل النبي ﷺ من كداء أى بالقصر، وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة الآتية أن خالدًا دخل من أسفل مكة والنبى ﷺ من أعلاها، وكذا جزم ابن إسحاق أن خالدًا دخل من أسفل مكة، ودخل النبي ﷺ من أعلاها وضربت له هناك قبة، وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقا واضحا فقال: وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل مكة من أسفل مكة وأن يغرز

(١) رواه البخارى في " المغازى " (٤٢٨٠) باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟

رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

قوله: (فقتل من خيل خالد بن الوليد ﷺ يومئذ رجلان: حبيش ابن الأشعر وكرز) ذكر ابن إسحاق أن هذين الرجلين سلكا طريقا فشذا عن عسكر خالد فقتلهما المشركون يومئذ. وذكر ابن إسحاق أن أصحاب خالد لقوا ناسًا من قريش منهم: سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية كانوا تجمعوا بالخندمة، مكان أسفل مكة، ليقاتلوا المسلمين، فناوشوهم شيئا من القتال، فقتل من خيل خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، وقتل من المشركين اثنا عشر رجلا أو ثلاثة عشر وانهزموا، وفى ذلك يقول حماس بن قيس بن خالد البكري يخاطب امرأته، حين لامته على الفرار من المسلمين:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ::: إذ فر صفوان وفر عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة ::: يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضربا فلا يسمع إلا غمغمة ::: لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وعند موسى بن عقبة: " واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالدا، فقاتلهم، فانهزموا وقتل من بنى بكر نحو عشرين رجلا ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا في الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن، قال: ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال:﴿**ما هذا وقد نهيت عن القتال؟**﴾ فقالوا: نظن أن

خالدا قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتل. ثم قال: وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد:﴿**لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟**﴾ فقال: هم بدؤونا بالقتال ووضعوا فينا السلاح، وقد كففت يدى ما استطعت فقال:﴿**قضاء الله خير**﴾.

وقد كان رسول الله ﷺ أمر أمراءه أن لا يقتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دم نفر سماهم، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وعكرمة بن أبى جهل، والحويرث بن نقيد، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسارة مولاة بنى المطلب وهى التي وجد معها كتاب حاطب. فأما ابن أبى سرح فكان أسلم ثم ارتد ثم شفع فيه عثمان يوم الفتح إلى النبي ﷺ فحقن دمه وقبل إسلامه. وأما عكرمة ففر إلى اليمن فتبعته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فرجع معها بأمان من رسول الله ﷺ. وأما الحويرث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة فقتله عليٌّ يوم الفتح. وأما مقيس بن صبابة فكان أسلم ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، وكان الأنصارى قتل أخاه هشاما خطأ، فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصارى ثم ارتد، فقتله نميلة بن عبد الله يوم الفتح. وأما هبار فكان شديد الأذى للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت، ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت، فلما كان يوم الفتح بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه أعلن بالإسلام فقبل منه فعفا عنه. وأما القينتان فاسمهما فرتنى وقرينة، فاستؤمن لإحداهما فأسلمت وقتلت الأخرى، وأما سارة فأسلمت وعاشت إلى خلافة عمر، وقال الحميدى: بل قتلت.

وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعى قتله علىٌّ. وذكر غير ابن إسحاق أن فرتنى هى التي أسلمت وأن قرينة قتلت.

وذكر الحاكم أيضا ممن أهدر دمه كعب بن زهير وقصته مشهورة، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح. ووحشى بن حرب. وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، وقد أسلمت. وأرنب مولاة ابن خطل أيضا قتلت. وأم سعد قتلت فيما ذكر ابن إسحاق فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة. ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب.

وروى أحمد ومسلم والنسائى من طريق عبد الله بن رباح عن أبى هريرة قال: " أقبل رسول الله ﷺ، وقد بعث على إحدى الجنبتين خالد ابن الوليد وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيد على الحُسَّر - أى الذين بغير سلاح - فقال لى:﴿**يا أبا هريرة اهتف لى بالأنصار**﴾، فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا به، فقال لهم:﴿**أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم**﴾ ثم قال بإحدى يديه على الأخرى:﴿**احصدوهم حصدًا حتى توافونى بالصفا**﴾ قال أبو هريرة: فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحدا منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، قال: فقال رسول الله ﷺ:﴿**من أغلق بابه فهو آمن**﴾، وقد تمسك بهذه القصة من قال إن مكة فتحت عنوة وهو قول الأكثر، وعن الشافعى ورواية عن أحمد أنها فتحت صلحًا لما وقع من هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها، ولأنها لم تقسم، ولأن الغانمين لم يملكوا دورها وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها.

وحجة الأولين ما وقع من التصريح من الأمر بالقتال ووقوعه من خالد بن الوليد، وبتصريحه ﷺ أنها أحلت ساعة من نهار، ونهيه عن التأسى به في ذلك. وأجابوا عن ترك القسمة بأنها لا تستلزم عدم العنوة فقد تفتح البلد عنوة ويُمن على أهلها ويترك لهم دورهم وغنائمهم، لأن قسمة الأرض المغنومة ليست متفقًا عليها، بل الخلاف ثابت عن الصحابة فمن بعدهم، وقد فتحت أكثر البلاد عنوة فلم تقسم، وذلك في زمن عمر وعثمان مع وجود أكثر الصحابة، وقد زادت مكة عن ذلك بأمر يمكن أن يدعى اختصاصها به دون بقية البلاد، وهى أنها دار النسك ومتعبد الخلق، وقد جعلها الله تعالى حرمًا سواء العاكف فيه والباد.

وأما قول النووى: احتج الشافعى بالأحاديث المشهورة بأن النبي ﷺ صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة ففيه نظر، لأن الذي أشار إليه إن كان مراده ما وقع له من قوله ﷺ:﴿**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن**﴾ وكذا:﴿**من دخل المسجد**﴾ كما عند ابن إسحاق، فإن ذلك لا يسمى صلحًا إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال، والذى ورد في الأحاديث الصحيحة ظاهر في أن قريشًا لم يلتزموا ذلك لأنهم استعدوا للحرب كما ثبت في حديث أبى هريرة عند مسلم:﴿**إن قريشا وبشت أوباشا لها وأتباعها**﴾ فقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطيناه الذين سألنا. فقال النبي ﷺ:﴿**أترون أوباش قريش؟**﴾ ثم قال بإحدى يديه على الأخرى أى: احصدوهم حصدا حتى توافونى على الصفا. قال: فانطلقنا فما نشاء نقتل أحدًا إلا قتلناه "، وإن كان مراده بالصلح وقوع عقد به فهذا لم ينقل ولا أظنه عنى إلا الاحتمال الأول وفيه ما ذكرته.

وتمسك أيضا من قال إنه مبهم بما وقع عند ابن إسحاق في سياق قصة الفتح: فقال العباس لعلى: أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة. ثم قال في القصة بعد قصة أبى سفيان: ﴿من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن﴾ فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وعند موسى بن عقبة في المغازى - وهى أصح ما صنف في ذلك عند الجماعة - ما نصه " أن أبا سفيان وحكيم بن حزام قالا: يا رسول الله كنت حقيقًا أن تجعل عدتك وكيدك بهوازن، فإنهم أبعد رحمًا وأشد عداوة، فقال: ﴿إنى لأرجو أن يجمعهما الله لى﴾ فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم " فقال أبو سفيان وحكيم: فادع الناس بالأمان، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها ءآمنون هم؟ قال: ﴿من كف يده وأغلق داره فهو آمن﴾ قالوا: فابعثنا نؤذن بذلك فيهم، قال: ﴿انطلقوا، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم فهو آمن﴾.

ودار أبى سفيان بأعلى مكة ودار حكيم بأسفلها، فلما توجها قال العباس: يا رسول الله إنى لآمن أبا سفيان أن يرتد، فرده حتى تريه جنود الله، قال: ﴿أفعل﴾ فذكر القصة، وفى ذلك تصريح بعموم التأمين، فكان هذا أمانًا منه لكل من لم يقاتل من أهل مكة، فمن ثَمَّ قال الشافعى: كانت مكة مأمونة ولم يكن فتحها عنوة، والأمان كالصلح.

وأما الذين تعرضوا للقتال أو الذين استثنوا من الأمان وأمر أن يقتلوا لو تعلقوا بأستار الكعبة فلا يستلزم ذلك أنها فتحت عنوة. ويمكن الجمع بين حديث أبى هريرة في أمره ﷺ بالقتال وبين حديث تأمينه ﷺ لهم بأن يكون التأمين عُلق بشرط وهو ترك قريش المجاهرة بالقتال، فلما تفرقوا إلى دورهم ورضوا بالتأمين المذكور لم يستلزم أن أوباشهم الذين لم يقبلوا ذلك وقاتلوا خالد بن الوليد ومن معه فقاتلهم حتى قتلهم وهزمهم أن تكون البلد فتحت عنوة، لأن العبرة بالأصول لا بالأتباع وبالأكثر لا بالأقل، ولا خلاف مع ذلك أنه لم يجر فيها قسم غنيمة ولا سبى من أهلها ممن باشر القتال أحد، وهو مما يؤيد قول من قال لم يكن فتحها عنوة.

وعند أبى داود بإسناد حسن عن جابر أنه سئل: هل غنمتم يوم الفتح شيئا؟ قال: لا. وجنحت طائفة - منهم الماوردى - إلى أن بعضها فتح عنوة لما وقع من قصة خالد بن الوليد المذكورة، وقرر ذلك الحاكم في " الإكليل ". والحق أن صورة فتحها كان عنوة ومعاملة أهلها معاملة من دخلت بأمان " (١).

* * *

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة

عقب فتح مكة، قام النبي ﷺ بإرسال السرايا حولها لدعوة الناس إلى الإسلام، وقتال من قاتلهم، فأرسل خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ابن عامر.

(١) فتح البارى (٨ / ٤٨٨٧ - ٤٨٩١) باختصار، ط المكتبة العصرية، بيروت.

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ: " بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا[١]، صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: لا والله لا أقتل أسيرى ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرنا له، فرفع النبي ﷺ يديه فقال:﴿**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين**﴾ [٢].

قال ابن حجر – رحمه الله –: " هذا البعث كان عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازى، وكانوا - أى بنى جذيمة - بأسفل مكة من ناحية يلملم، قال ابن سعد: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار داعيًا إلى الإسلام لا مقاتلا.

قوله: (فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا) هذا من ابن عمر راوى الحديث يدل على أنه فهم أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، يؤيده فهمه أن قريشًا كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة وصاروا يطلقونها في مقام الذم، ومن ثم لما أسلم ثمامة بن أثال وقدم مكة معتمرًا قالوا له: صبأت؟ قال: لا بل أسلمت، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء، وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها لأن قولهم

(١) الصابئ: هو الذي يخرج من دين إلى دين جديد.
(٢) رواه البخارى في " المغازى " (٤٣٣٩) باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة.

صبأنا أى: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام.

وقال الخطابى: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا قولهم.

قوله:﴿**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد**﴾ قال الخطابى: أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا.

وزاد الباقر في روايته: " ثم دعا رسول الله ﷺ عليًا فقال:﴿**اخرج إلى هؤلاء القوم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك**﴾ فخرج حتى جاءهم ومعه مال فلم يبق لهم أحد إلا واده - أى دفع ديته " (١).

* * *

(١) " فتح البارى " (٨ / ٤٩٤٥ - ٤٩٤٦) باختصار.

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد لهدم العزى

العزى: هي شجرة كانت تعظمها قريش، وكانت عليها بناء وأستار، وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم.

ويوم غزوة أحد وقف أبو سفيان بن حرب يقول للمسلمين: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:﴿**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**﴾.

وبعد فتح مكة أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العزى، ولما علم خادمها بذلك علَّق عليها سيفه، وانطلق إلى أعلى الجبل وهو يقول:؟؟؟

أيا عز شدى شدة لا شوى لهـا[1] ::: على خالد ألقى القنـاع وشمـرى
يا عز إن لم تقتلى المرء خالدًا ::: فبوئى[2] بإثم عاجل أو تنصرى

فتقدم إليها خالد رضي الله عنه، وجعل يهدمها ويقول:

يا عزى كفرانك لا سبحانك ::: إني رأيت الله قد أهانك

قال المباركفورى: " لما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد ابن الوليد إلى العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها، وكانت بنخلة، وكانت لقريش، وجميع بنى كنانة، وهى أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بنى شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها فهدمها، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ:﴿**هل رأيت شيئا؟**﴾، قال: لا، قال:﴿**فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها**﴾.

(١) لا شوى لها: يريد لا تبقى على شيء.
(٢) بوئى: ارجعى

فرجع خالد متغيظًا قد جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال:﴿نعم﴾ تلك العزى، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبدا " (١).

* * *

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة

في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة خرج النبي ﷺ ومعه ثلاثون ألف من أصحابه من المدينة لغزو الروم في تبوك، وقد انتهت هذه الغزوة بعقد صلح بين رسول الله ﷺ ويحنة بن رؤية صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية.

وبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك الجندى ملك دومة(٢) - وكان نصرانيًا - وأرسل معه أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له:﴿إنك تجده يصيد البقر﴾ (٣).

فتوجه خالد إلى قصره في الليل، ولما اقترب منه وجد بقرة تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر ليصيدها، فقبض عليه خالد رضي الله عنه، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فخلعه عنه خالد وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل أن يقدم على رسول الله ﷺ ومعه أكيدر، ولما رأى المسلمون هذا القباء جعلوا يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال لهم رسول الله ﷺ:﴿أتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا﴾.

(١) " الرحيق المختوم " (ص ٣٥٥ - ٣٥٦).
(٢) دومة: هى دومة الجندل على عشر مراحل من المدينة جهة الشام.
(٣) كان أكيدر دومة يحب صيد البقر.

ثم أقبل خالد بن الوليد ﷺ إلى رسول الله ﷺ ومعه أكيدر دومة، فحقن النبي ﷺ دمه، وصالحه على الجزية، وخلى سبيله، وبهذا تم فتح دومة الجندل على يد خالد بن الوليد ﷺ.

* * *

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى نجران وإسلام بنى الحارث ابن كعب على يديه

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس أسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبذلك كان أمَرَه رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا.

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمت فيهم، وقبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا: يا بنى الحارث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به،

وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلىّ رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

" بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي رسول الله، إلى خالد بن الوليد. سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم، وأقبل ليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ".

* * *

قدوم خالد مع وفد نجران على رسول الله ﷺ

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب، منهم قيس بن الحصين ذى الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد ابن المحجل، وعبد الله بن قراد الزيادى، وشداد بن عبد الله القنانى، وعمرو بن عبد الله الصبانى، فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم، قال:﴿من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟﴾، قيل: يا رسول الله، هؤلاء رجال بن الحارث بن كعب، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه، وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ:﴿**وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول**

الله﴾[1]، ثم قال رسول الله ﷺ:﴿أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا؟﴾ فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثانية، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرار، فقال رسول الله ﷺ:﴿لو أن خالدًا لم يكتب إليّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم﴾، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا، قال:﴿فمن حمدتم؟﴾، قالوا: حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله، قال:﴿صدقتم﴾، ثم قال رسول الله ﷺ:﴿بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟﴾ قالوا: لم نكن نغلب أحدا، قال:﴿بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم﴾، قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله، إنا كنا نجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ أحدا بظلم، قال:﴿صدقتم﴾، وأمّر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس ابن الحصين، فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم في بقية من شوال أو في صدر ذى القعدة فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﷺ [2].

* * *

(١) هذا القول من الرسول ﷺ تصويبًا لقول الوفد، لأنهم شهدوا للرسول ﷺ قبل شهادتهم بالله عز وجل.

(٢) " السيرة النبوية " لابن هشام (٤/ ١٦٣ - ١٦٥) بتحقيقى، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

جهاد خالد بن الوليد ﷺ في حروب الردة

بعد وفاة النبي ﷺ وتولى أبى بكر ﷺ للخلافة من بعده، ارتد بعض العرب عن الإسلام لأسباب عدة.

قال الخطابى – رحمه الله –: " إن أهل الردة كانوا صنفين: صنفًا ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر، وهذه الفرقة طائفتان: إحداهما أصحاب مسيلمة من بنى حنيفة وغيرهم الذين صدقوه على دعواه في النبوة، وأصحاب الأسود العنسى ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة سيدنا محمد ﷺ مدعية النبوة لغيره.

والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، والصنف الآخر هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام(١)، وقد كان من ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بها ولا يمنعها، إلا أن رؤسائهم صدوهم عن ذلك وقبضوا أيديهم على ذلك(٢).

وقريب من هذا التقسيم لأصناف المرتدين تقسيم القاضى عياض، غير أنهم عنده ثلاثة: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان، وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسى، وكل منهما ادعى النبوة، وصنف ثالث استمروا

(١) لأنهم تأولوا قول الله عز وجل:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، ففهموا من الآية أن الزكاة لا تدفع إلا للنبي ﷺ على وجه الحصر، فإذا مات النبي فلا تدفع الزكاة لغيره!!.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووى (١ / ٢٠٢ - ٢٠٣).

على الإسلام ولكنهم جحدوا الزكاة، وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي ﷺ [(١)].

وقسّم الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود المرتدين إلى أربعة أصناف: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان والأصنام، وصنف اتبعوا المتنبئين بالكذب، الأسود العنسى ومسيلمة وسجاح، وصنف أنكروا وجوب الزكاة وجحدوها، وصنف لم ينكروا وجوبها، ولكنهم أبوا أن يدفعوها إلى أبى بكر[(٢)].

وقد عزم أبو بكر الصديق رضي الله عنه على قتال المرتدين، فقام في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمدًا ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قدرت حبله، وخلق ثوبه، وضل أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًا لشر عندهم، وقد غيروا كتابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله، لا يعبدونه، ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًا وأظلهم دينًا في ظلف الأرض مع ما فيه من سحاب، فختمهم الله بمحمد، وجعلهم الأمة الوسطى، ونصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه ﷺ، فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم وبغى هلكتهم{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾} [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) " فتح البارى " (١٢ / ٢٧٦).

(٢) " الحكم بغير ما أنزل الله " د. عبد الرحمن المحمود ص ٢٣٩. نقلا عن " الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق " للصلابى (٢٣٥، ٢٣٦).

إن من حولكم من الأعراب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا على متقدم من بركة نبيكم وقد وكلكم إلى المولى الكافى الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه{وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)} [آل عمران: ١٠٣].

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفى لنا عهده، ويقتل من قتل شهيدًا من أهل الجنة، ويبقى منها خليفته وذريته في أرضه قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥].

وقد أشار بعض الصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب على الصديق بأن يترك مانعى الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق عن ذلك وأباه، فعن أبى هريرة ﵁ قال: لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبى بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال ﷺ: ﴿**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه**(١) وحسابه على الله﴾، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو

(١) بحقه: حق الإسلام.

منعونى عناقا[١] كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها.

وفى رواية: " والله لو منعونى عقالا[٢] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ".

قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر، فعرفت أنه الحق[٣]، ثم قال عمر بعد ذلك: والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعا في قتال أهل الردة[٤].

وبذلك يكون أبو بكر قد كشف لعمر وهو يناقشه عن ناحية فقهية مهمة أجلاها له، وكانت قد غابت عنه وهى أن جملةً جاءت في الحديث النبوى الشريف الذي احتج به عمر هى الدليل على وجوب محاربة من منع الزكاة حتى وإن نطق بالشهادتين وهى قول النبي ﷺ:﴿**فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها**﴾ [٥]، وفعلاً كان رأى أبي بكر في حرب المرتدين رأيا ملهمًا، وهو الرأى الذي تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين.

ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه ورجعوا إلى قوله واستصوبوه، ومن هنا أتى قول سعيد بن المسيب رحمه الله: وكان أفقههم - يعنى الصحابة - وأمثلهم رأيا[٦].

(١) عناقا: الأنثى من ولد المعز.
(٢) عقالا: هو الحبل الذي يعقل به البعير.
(٣) رواه البخارى (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠).
(٤) " حروب الردة " محمد أحمد باشميل ص ٢٤.
(٥) رواه مسلم (٢١).
(٦) " الانشراح ورفع الضيق " (ص ٢٣٨ - ٢٤١).

وقام الصديق ﷺ بوضع خطة محكمة لقتال المرتدين فقسم الجيش الإسلامى إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء أميرًا، وعيَّن لكل أمير الجهة التي يقصدها، والقوم الذين يقاتلهم، وهؤلاء الأمراء هم:

١- خالد بن الوليد: بعثه لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة. فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح.
٢- عكرمة بن أبى جهل: بعثه إلى مسيلمة الكذاب.
٣- شرحبيل بن حسنة: بعثه في إثر عكرمة ثم حضرموت.
٤- عمرو بن العاص: بعثه إلى قضاعة.
٥- المهاجر بن أبى أمية: بعثه إلى الأسود العنسى بصنعاء.
٦- حذيفة بن محصن الغلفانى: بعثه إلى دبا بعمان.
٧- العلاء بن الحضرمى: بعثه إلى أهل البحرين.
٨- عرفجة بن هرثمة: بعثه إلى أهل مهرة.
٩- سويد بن مقرن: بعثه إلى أهل تهامة اليمن.
١٠- طريفة بن حاجز: بعثه إلى بنى سليم ومن انضم إليهم من هوازن.
١١- خالد بن سعيد بن العاص: بعثه إلى مشارف الشام.

وبالنظر إلى هذه البعوث يتبين أن أبا بكر ﷺ لم يول أحد أولئك الأمراء أكثر من ناحية واحدة، وربما أشرك اثنين في ناحية، ماعدا خالد ابن الوليد ﷺ، فقد ولاه أمر طليحة ومالك بن نويرة، ثم مسيلمة الكذاب بعد انهزام من بعث إليه من الأمراء، مما يدل على عظيم ثقة

أبى بكر في خالد، ومعرفته بقدراته الفائقة في قتال المارقين عن الدين، وأنه:﴿سيف من سيوف الله سله الله على المشركين﴾ [(١)].

* * *

(١) حديث صحيح. انظر " السلسلة الصحيحة " (٣ / ٢٤١).

قتال خالد بن الوليد لطليحة الأسدى

طليحة الأسدى هو: طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدى، من بنى أسد بن خزيمة، وكان قد قدم مع وفد من قومه على رسول الله ﷺ في عام الوفود سنة تسع للهجرة، فمنوا على النبي ﷺ بإسلامهم.

قال ابن عباس ﷺ: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله ﷺ:﴿**إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم**﴾، ونزلت هذه الآية: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)} [الحجرات: ١٧] (١).

ولما عاد طليحة الأسدى إلى بلاده ارتد وادعى النبوة.

قال ابن كثير – رحمه الله –: كان طليحة الأسدى ارتد في حياة النبي ﷺ، فلما مات رسول الله ﷺ قام بمؤازرته عيينة بن حصن من بدر، وارتد عن الإسلام وقال لقومه: والله لنبى من بند أسد أحب إلىّ من بنى هاشم، وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه، فوافق قومه بنى فزارة على ذلك " (٢).

وكان طليحة يقول لأتباعه: إن جبريل يأتينى من السماء، وكان يسجع للناس، ويزعم أن هذا من الوحى، ومن وحيه المزعوم: " الحمام واليمام والصُرد(٣) الصّوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغن

(١) صحيح: رواه البزار كما في تفسير ابن كثير (٧ / ٣٠٨) بتحقيقى، ط. دار الغد الجديد بالمنصورة.

(٢) " البداية والنهاية " (٧ / ٧١٠) بتحقيقى، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٣) الصرد: نوع من الغربان.

ملكنا العراق والشام " [١]، وكان يأمر أتباعه بترك السجود في الصلاة، ويقول لهم: إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئًا، اذكروا الله واعبدوه قيامًا!!، ولما انتشر أمره أرسل إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور الأسدى لمقاتلته، ولكن ضرارًا لم يتمكن منه، وتوفى النبي ﷺ بينما استمر طليحة في ادعاء النبوة.

* * *

سير خالد بن الوليد بجيشه لقتال طليحة

كان أبو بكر ﷺ، وهو يوجه خالد بن الوليد لقتال طليحة يستحضر ما قاله الرسول ﷺ في حق خالد ﷺ.

فقد روى الإمام أحمد: أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿**نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين**﴾[٢].

ولما توجه خالد من ذى القصَّة[٣] وفارقه الصديق واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب - وأمره أن يذهب أولا إلى طليحة الأسدى، ثم يذهب بعده إلى بنى تميم، وكان طليحة بن خويلد في قومه بنى أسد، وفى غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بنى جديلة والغوث من طيئ يستدعيهم إليه، فبعثوا أقوامًا منهم بين أيديهم

(١) " البداية والنهاية " (٧١١/٣).
(٢) صحيح. رواه أحمد (١ / ١٧٣).
(٣) ذو القصة: وادى بالقرب من المدينة، وهو المكان الذي جهّز فيه أبو بكر الجيوش لقتال المرتدين.

ليلحقوهم على أثرهم سريعا، وكان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدى إلى قومه بنى طيئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل[١] أبدا - يعنون أبا بكر ﷺ - فقال: والله ليأتينكم جيشه فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدى يفتل لهم في الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد في الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه: ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه: ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن طليعة، فتلقاهما حِبال - ابن أخى طليحة - فقتلاه، فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سلمة، فما وجدا ثابتًا وعكاشة تبارزوا، وحمل طليحة على عكاشة فقتله، وقتل سلمة ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين، ومال خالد إلى بنى طيئ، فخرج إليه عدى ابن حاتم فقال: أنظرنى ثلاثة أيام، فإنهم قد استنظرونى حتى يبعثوا إلى من تعجّل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنه يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار، فلما كان بعد ثلاث جاءه عدى في خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بنى جديلة[٢].

(١) الفصيل: ولد الناقة.
(٢) جديلة أحد جناحى طيئ، والجناح الآخر هو الغوث.

فقال له: يا خالد أجّلنى أياما حتى آتيهم، فلعل الله أن ينقذهم كما أنقذ الغوث[١]، فأتاهم عدى فلم يزل بهم حتى تباعوه، فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عدى خير مولود وأعظمه بركة على قومه ﷺ[٢].

* * *

(١) " البداية والنهاية " تهذيب وترتيب محمد السلمى، خلافة أبى بكر (ص ١٠٢).
(٢) " البداية والنهاية " (٦/ ٣٢٢).

معركة بُزاخة والقضاء على بنى أسد

ثم سار خالد حتى نزل بأجا وسلمى، وعَبّى جيشه هنالك والتقى مع طليحة الأسدى بمكان يقال له: بُزاخة[١]، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه، ومن التف معهم وانضاف إليهم، وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بني فزارة واصطف الناس، وجلس طليحة ملتفًا في كساء له يتنبأ لهم، ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم، وجعل عيينة يقاتل، حتى إذا ضجر من القتال جاء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه وقال له: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك، ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم!!، قال: فما قال لك؟ قال: قال لى: إن لك رحا كرحاه وحديثا لا تنساه.

قال عيينة: أظن أن قد علم الله سيكون لك حديثا لا تنساه، ثم قال: يا بنى فزارة انصرفوا، وانهزم الناس عن طليحة، فلماء جاءه المسلمون، ركب على فرس كان قد أعدها له، وأركب امرأته النّوار على بعير له[٢] ثم قال لأتباعه: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل، وسار بامرأته إلى الشام، فنزل على قبيلة كلب على النَّقع، فأسلم وحسن إسلام، وظل مقيمًا في كلب حتى مات أبو بكر، وكان قد خرج نحو مكة معتمرًا قبل موت أبى بكر، ومرّ بجنبات المدينة، فقيل لأبى بكر ﵁: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به، خلوا عنه، فقد هداه الله للإسلام.

(١) بزاخة: ماء لبنى أسد.
(٢) " البداية والنهاية " (٣ / ٧٠٩، ٧١٠).

وعندما ولى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة جاءه طليحة ليبايعه، فقال له عمر ﷺ: أنت قاتل عكاشة وثابت[١]؟ والله لا أحبك أبدا، فقال طليحة: يا أمير المؤمنين، ما تهتم من رجلين أكرمهما الله بيدى، ولم يُهِّنى بأيديهما[٢]، فبايعه عمر ﷺ، ثم رجع طليحة إلى قومه، فأقام بها حتى خرج إلى العراق لقتال الفرس في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، واستشهد هناك.

وكان طليحة يذكر ما كان منه ويعتذر عنه بقوله:

ندمت على ما كان من قتل ثابت ::: وعكاشة الغنمى ثم ابن معبد
وأعظم من هاتين عندى مصيبة ::: رجوعى عن الإسلام فعل التعمد
وتركى بلادى والحوادث جمة ::: طريدا وقد ما كنت غير مطرَّد
فهل يقبل الصديق أنى مراجع ::: ومعط بما أحدثت من حدث يدى
وأنى من بعد الضلالة شاهد ::: شهادة حق ليس فيها بملحد
بأن إله الناس ربى وأننى ::: ذليل وأن الدين دين محمد

وأما أهل بزاخة - أسد وغطفان - فقد رجعوا إلى الإسلام وبايعوا خالد بن الوليد على ذلك، ثم أقبلت بنو عامر بعد هزيمة بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل بزاخة من أسد وغطفان وطيئ قبلهم.

وكان خالد ﷺ قد بعث إلى أبى بكر ﷺ بالأسارى، ومعهم قرة ابن هبيرة، وكتب إليه يقول: إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربص، وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى أو

(١) عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ♥.
(٢) يقصد أن الله أكرم عكاشة وثابت بالشهادة لما قتلهما، لأن هذا يذهب بهما إلى الجنة، ولو قتلاه هما لمات على الكفر ودخل النار.

سالمنى شيئا حتى يجيؤونى بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة، وبعثت إليك بقرة وأصحابه [١].

وكان عيينة بن حصن من بين الأسرى فأمر خالد بشد وثاقه تنكيلا به، " وبعث به إلى المدينة مجموعة يداه إلى عنقه فدخل المدينة وهو كذلك، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم، ويقولون: أى عدو الله، ارتددت عن الإسلام؟ فيقول: والله ما كنت آمنت قط، فلما وقف بين يدى الصديق استتابه وحقن دمه، ثم حسن إسلامه بعد ذلك " [٢].

* * *

قصة أم زِمْل

كان خالد ﷺ قد أقام على البزاخة شهرًا يصعد ويصوب ويتتبع الثأر ويأخذ الصدقات، ويدعو الناس ويسكنهم، وبينما هو كذلك بلغه أن طائفة كثيرة من الضُلال من أصحاب طليحة قد تجمعت على امرأة يقال لها: أم زِمْل سلمى بنت مالك بن حذيفة - وهى من بنى فزارة - في مكان يسمى ظفر [٣] وقد أمرتهم بقتال خالد وجيشه، وكثر جمعها وعظم أمرها، فسار إليها خالد ﷺ وقاتلها وفض جمعها، وكانت أم زمل تقاتل وهى راكبة على جمل أمها [٤] الذي كان يقال له: من نخسه فله مائة من الإبل، وذلك لعزها، فهزمهم خالد ﷺ وعقر جملها وقتلها، وقتل حول جملها مائة جمل.

(١) " تاريخ الطبرى " (٤ / ٨٢).
(٢) " البداية والنهاية " (٣ / ٧١٠).
(٣) ظفر: اسم موضع قرب الحوأب في طريق البصرة إلى المدينة.
(٤) أمها هى أم قِرْفة، كان يضرب بها المثل في الشرف لكثرة أولادها، وعزة قبيلتها وبيتها.

خبر مالك بن نويرة

هو: مالك بن نويرة التميمى، وكان بنو تميم قد وفدوا على رسول الله ﷺ، فأسلموا وعين عليهم النبي ﷺ أمراء منهم، من بينهم: الزبرقان ابن بدر، وصفوان بن صفوان، وقيس بن عاصم، ومالك بن نويرة.

وبعد وفاة النبي ﷺ اضطرب أمر بنى تميم، فكان منهم من بقى على وفائه بما عاهد عليه الرسول ﷺ فأرسل الصدقة إلى أبى بكر، ومنهم من ارتد ومنع الزكاة، " ومنهم من توقف لينظر في أمره فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عُقفان التغلبية من الجزيرة، وهى من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة وكان معها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا على غزو أبى بكر، فلما مرت ببلاد بنى تميم دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمى، وعطارد بن حاجب، وجماعة من سادات أمراء بنى تميم، وتخلف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن عزمها، وحرضها على بنى يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ، فقالت لهم فيما تسجعه: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب[١] فليس دونها حجاب.

ثم استطاع بنو تميم إقناعها بقصد اليمامة، لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب، فهابه قومها وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم،

(١) الرباب: فرع من بنى تميم.

فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرّامة لا تلحقكم بعدها ملامة، فعمدوا لحرب مسيلمة،فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أنه مشغول بمقاتلة ثمامة بن أثال، وقد ساعده عكرمة بن أبى جهل بجنود المسلمين وهم نازلون ببعض بلاده ينتظرون قدوم خالد، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت[١]، وراسلها ليجتمع بها في طائفة من قومه، فركب إليها في أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا في خيمة، فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال لها: هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب؟ قالت: نعم، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى قومها، فقالوا: أصْدَقك؟ فقالت: لم يصدقنى شيئًا، فقالوا: إنه لقبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق، فبعثت إليه تسأله صداقًا، فقال: أرسلى إلى مؤذنك، فبعثته إليه - وهو شبث بن ربعى الرياحى - فقال: ناد في قومك: أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد - يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء - فكان هذا صداقها عليه، ثم انثنت سجاح راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دنو خالد من أرض اليمامة فكرت راجعة إلى الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بنى تغلب إلى زمان معاوية، فأجلاهم منها عام الجماعة " [٢].

(١) لأن مسليمة لما ادعى النبوة كتب إلى النبي ﷺ يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإنى قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون!!.
(٢) البداية والنهاية " (٦ / ٣٢٦) باختصار يسير.

وبعد اتصال سجاح بمسيلمة، ورجوعها إلى بلادها، ندم مالك بن نويرة على اتفاقه معها، وذهب إلى مكان يقال له البُطاح[1]، فذهب إليه خالد بن الوليد بجنوده، غير أن الأنصار تخلفوا عن جيش خالد، وقالوا: لم يعهد إلينا أبو بكر ﷺ بالمسير إلى ابن نويرة، وإنما عهد إلينا إن نحن فرغنا من بزاغة أن نقيم فيها حتى يكتب إلينا، فقال لهم خالد: " إن هذا أمر لابد من فعله، وفرصة لابد من انتهازها، وإنه لم يأتينى فيها كتاب، وأنا الأمير وإلى ترد الأخبار، ولست بالذى أجبركم على المسير، وأنا قاصد البطاح، فسار يومين ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به، فلما وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة، بث خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بنى تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلا ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحير في أمره، متنح عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربعى الأنصارى - أنهم أقاموا الصلاة - أى شهد بإسلامهم - وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا، فيقال إن الأسارى باتوا في كبولهم في ليلة شديدة البرد، فنادى مناد خالد: أن أدفئوا أسراكم[2]، فظن القوم أنه أراد القتل، فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، فلما سمع خالد الواعية - أى الصراخ - خرج وقد فرغوا منهم فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابه، ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال

(١) بطاح: على وزن غراب، منازل بنى يربوع قوم مالك بن نويرة.
(٢) إكرام الأسارى والرفق بهم أمر معروف عن المسلمين.

مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضُربت عنقه، وقد تكلم أبو قتادة فيما صنع وتقاولا في ذلك حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصديق، وتكلم عمر مع أبى قتادة في خالد وقال للصديق: اعزله فإن في سيفه رهقا[١]، فقال أبو بكر: " لا أشيم سيفا سله الله على الكفار " وجاء متمم بن نويرة، فجعل يشكو إلى الصديق خالدًا، وعمر يساعده، وينشد الصديق ما قال في أخيه من المراثى، فواده[٢] الصديق من عنده " [٣] وقد اعتذر أبو بكر ﷺ عن خالد لما طلب منه عمر بن الخطاب أن يعزله لقتله مالك بن نويرة وهو مسلم، فقال له: هيه يا عمر، تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد.

وهذا التأول من خالد ﷺ يمنع عنه القود والدية والكفارة، وهو شبيه بما وقع من أسامة بن زيد ﷺ عندما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، فقال له النبي ﷺ:﴿**يا أسامة قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟**﴾ فأنكر النبي ﷺ على أسامة قتله للرجل، ولم يوجب عليه قودًا ولا دية ولا كفارة.

والذي حمل خالد ﷺ على هذا التأول هو تحيره في أمر مالك بن نويرة، لأن مالكًا قد صدرت عنه أقوال وأفعال تجعله أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام، كوقوفه بجانب سجاح، وكقوله لخالد - لما عاتبه على منعه الزكاة وقال له خالد: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك!! وكأن خالدًا فهم من هذا

---

(١) الرهق: السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم.
(٢) أى دفع ديته.
(٣) " البداية والنهاية " (٦ / ٣٢٧) نقلا عن " الانشراح ورفع الضيق " (ص ٢٩٩).

القول أنه ينكر نبوة النبي ﷺ، وكتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبى بكر ﷺ.

قال النووى – في حديثه عن المرتدين –: " كان في ضمن هؤلاء من يسمح بالزكاة ولا يمنعها إلا أن رؤسائهم صدوهم عن ذلك وقبضوا على أيديهم في ذلك كبنى يربوع، فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوها إلى أبى بكر ﷺ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرّقها " (١).

وهذا الأمر وحده كاف في إدانة ابن نويرة عند خالد ﷺ، ولذا قال ابن كثير: " واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة وأخطأ في قتله، كما أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى بنى جذيمة فقتل أولئك الأسارى الذين قالوا: صبأنا صبأنا ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فوادهم رسول الله ﷺ حتى رد إليهم ميلغة الكلب(٢)، ورفع يديه وقال:﴿**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد**﴾، ومع هذا لم يعزل خالدًا عن الإمرة " (٣).

* * *

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١ / ٢٠٣).
(٢) ميلغة الكلب: الوعاء الذي يلغ (يشرب) فيه الكلب.
(٣) " البداية والنهاية " (٣ / ٧١٥) بتحقيقى، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

زواج خالد بامرأة مالك بن نويرة

كانت امرأة مالك بن نويرة - واسمها أم تميم ليلى بنت سنان المنهال - من جملة السبايا[١]، فاصطفاها خالد لنفسه، وبعدما حلّت تزوج بها.

" ويعلق الشيخ أحمد شاكر على هذه المسألة بقوله: إن خالدًا أخذها هى وابنها ملك يمين بوصفها سبية، إذ أن السبية لا عدة عليها، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة، ثم دخل بها وهو عمل مشروع جائز لا مغمز فيه ولا مطعن، إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم[٢]، وأن خالدًا قتله من أجل امرأته، وقد اتهم خالد بأنه في زواجه هذا خالف تقاليد العرب، فقد قال العقاد: " قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته[٣] في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام، وعلى غير ما يألفه المسلمون، وتأمر الشريعة " [٤]، فهذا القول بعيدًا عن الصحة، فقد كان يحصل كثيرًا في حياة العرب قبل الإسلام إثر

(١) وحكم نساء المرتدين إذا لحقن بدار الحرب أن يسبين ولا يُقتلن.

(٢) يقصدون أن إسلام مالك بن نويرة كان واضحا لخالد، ولكنه قتله طمعًا في امرأته لشدة جمالها وحسنها، ويستدل هذا الفريق على هذه الفرية، بما ورد في بعض المصادر أن مالك ابن نويرة قال لامرأته عندما أمر خالد بقتله: " لم يقتلنى غيرك "، ونحن نربأ بخالد ﷺ - وهو الصحابى الجليل - أو أى صحابى آخر ليس في منزلته أن يقتل امرأ لأمر دنيوى بل شهوى.

(٣) أى تزوجها، وكانت العرب تسمى دخول الرجل بامرأته بالبناء، لأنه كانت تبنى له خيمة جديدة ليدخل فيها على امرأته.

(٤) " عبقرية الصديق " (ص ٧٠).

حروبهم وانتصاراتهم على أعدائهم أن يتزوجوا من السبايا، وكانوا يفخرون بذلك، ولذلك كثر فيهم أولاد السبايا، وهذا حاتم الطائى يقول:

وما أنكحونا طائعين بناهم ::: ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية ::: إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه ::: فيوردها بيضًا ويصدرها حمرا[1]

وأما من الناحية الشرعية، فقد أتى خالد أمرًا مباحًا وسلك إليه سبيلاً مشروعة أتاه من هو أفضل منه، فإذا كان قد أخذ عليه زواجه إبان الحرب أو في أعقابها، فإن رسول الله ﷺ تزوج بجويرية بنت الحارث المصطلقية إثر غزوة المريسيع، وقد كانت في سبايا بنى المصطلق فقضى عنها كتابتها وتزوجها، وكان بها طابع يمن وبركة على قومها إذ أعتق لهذا الزواج مائة رجل من أسراهم لأنهم أصبحوا أصهارًا لرسول الله ﷺ، وكان من آثاره المباركة كذلك: إسلام أبيها الحارث بن ضرار[2]، كما أنه عليه الصلاة والسلام تزوج بصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية إثر غزوة خيبر، وبنى بها في خيبر أو ببعض الطريق[3]، وإذا كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد توارى العتاب وانقطع الملام " [4].

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه (٧/ ١٢٣).
(٢) " سيرة ابن هشام " (٢ / ٢٩٠، ٢٩٥).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٣٩).
(٤) " حركة الردة " الدكتور على العتوم (ص ٢٣٧) نقلا عن " الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق " للصلابى (ص ٣٠٢ - ٣٠٤).

نقد دفاع الدكتور هيكل عن خالد ﷺ:

سلك الدكتور محمد حسين هيكل منهجًا غريبًا في الدفاع عن خالد ابن الوليد ﷺ، حيث أثبت عليه الفرية الجائرة التي بينا بطلانها، ثم ذهب يدفعها عنه بالتماس المعاذير له!!

قال: " وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب، بل والدخول بها قبل أن يتم تطهيرها، إذا وقع ذلك من فاتح غاز فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه!! إن التزمُّت في تطبيق التشريع لا ينبغى أن يتناول النوابغ العظماء من أمثال خالد، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة، أو يعرضها للخطر " (١).

وهذا الدفاع من الدكتور هيكل يصور خالدًا ﷺ على أنه لم يكن يلتزم بالأحكام الشرعية في هذا الموقف، وعلينا أن نغض الطرف عن ذلك ولا نتزمت في تطبيق الأحكام الشرعية على أمثال خالد ﷺ!!.

وقد استنكر الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - هذا الدفاع فقال: " أشد ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون وغيره من ملوك أوربا في مباذلهم وإسفافهم، وبما كتب الكاتبون من الإفرنج في الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم بما كان لهم من عظمة وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأياد حتى يظن بالمسلمين الأولين أنهم أمثال هؤلاء، فيقول: إن التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ العظماء من أمثال خالد، وهذا قول يهدم كل دين وخلق " (٢).

(١) " الصديق أبو بكر " (ص ١٤٠) ط. دار المعارف بمصر.
(٢) " حركة الردة " (ص ٢٣٢).

بعث أبى بكر خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب

في العام التاسع للهجرة (عام الوفود) الذى انتشر فيه الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، أقبل وفد من بنى حنيفة من اليمامة إلى رسول الله ﷺ في المدينة لإعلان إسلامهم بين يدى النبي ﷺ، وكان معهم رجل يُدعى مسيلمة [(١)] بن ثمامة بن كبير بن حبيب، ويكنى بأبى ثمامة، ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم بالجبيلة بقرب العيينة بوادى حنيفة في نجد، وكان قصير القامة، شديد الصفرة، أخنس الأنف أفطسه.

وعندما وفد مسيلمة على النبي ﷺ، كان له قصة مع النبي ﷺ، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبي ﷺ المدينة، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، فقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس ابن شماس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه قال:**﴿لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك، ولئت أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني﴾** ثم انصرف عنه[(٢)].

قال النووي: " قال العلماء: إنما جاءه ﷺ تألفًا له ولقومه رجاء إسلامهم، وليبلغ ما أنزل إليه. قال القاضي: ويحتمل أن سبب مجيئه إليه أن مسيلمة قصده من بلده للقائه، فجاءه مكافأة له. قال: وكان مسيلمة إذ ذاك يظهر الإسلام، وإنما ظهر كفره وارتداده بعد ذلك ".

---

(١) مسيلمة: مصغر بكسر اللام.
(٢) رواه البخاري في " المغازي " (٤٣٧٣)، ومسلم في " الرؤيا " (٢٢٧٣).

قال ابن حجر: " قوله: (إن جعل لي محمد الأمر من بعده) أي: الخلافة ".

قال النووي: " قوله ﷺ :﴿ولئن أدبرت ليعقرنك الله﴾ أي: إن أدبرت عن طاعتي ليقتلنك الله. والعقر: القتل. وعقروا الناقة: قتلوها. وقتله الله تعالى يوم اليمامة، وهذا من معجزات النبوة.

قال ابن حجر: " قوله: (وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني) أي: لأنه كان خطيب الأنصار، وكان النبي ﷺ قد أعطى جوامع الكلم فاكتفى بما قاله لمسيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسهاب في الخطاب، فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك ".

ولما رجع وفد بنى حنيفة إلى ديارهم باليمامة، ادعى مسيلمة النبوة، وأعلن شركته لرسول الله ﷺ فيها، وأن النبي ﷺ صدّقه على ذلك!! وشهد له بذلك الرّجال بن عنفوة الحنفى، فزعم أنه سمع محمدًا ﷺ يقول: " إن مسيلمة قد أشرك معه "، فصدَّق أهلُ اليمامة الرّجال بن عنفوة، واستجابوا له، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه، وذلك لأن الرّجال بن عنفوة كان قد هاجر إلى النبي ﷺ وقرأ القرآن وفُقه في الدين، فبعثه النبي ﷺ معلمًا لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين(١)، ولكنه بدلا من أن يقوم بما نُدب له ارتد عن الإسلام وأيد مسيلمة في ادعائه النبوة، وشهد أن النبي ﷺ أشركه فيها، ومن هنا جاء عظم فتنته.

وعندما أصيب النبي ﷺ بمرض موته في السنة العاشرة للهجرة، تجرأ مسيلمة، وأرسل للنبى ﷺ رسالة يقول له فيها: من مسيلمة

(١) " تاريخ الطبري " (٣/٢٨٢) ط دار المعارف بالقاهرة.

رسول الله (كذب) إلى محمد رسول الله سلام عليك، فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون!!

فكتب إليه النبي ﷺ رسالة نصها:﴿بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد. فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى﴾.

وبعد أن نعت النبي ﷺ مسيلمة بالكذاب التصقت به هذه الصفة، واقترنت باسمه، بل وكان يضرب به الأمثال في الكذب، فيقال: أكذب من مسيلمة.

* * *

قرآن مسيلمة الكذاب

كان مسيلمة الكذاب يبعث أناسًا ليسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ، فإذا قرؤوه عليه نسج على منواله، ويزعم للناس أنه يوحى إليه!!

فمن ذلك قوله: " والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا[١]، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغى فناوئوه "، وقوله: " يا ضفدع بنت ضفدعين، نقى كما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين " وقوله: " الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل، له شفر طويل، وذنب أثيل، وما ذاك من خلق ربنا بقليل "، ونحو ذلك من الهذيان السمج الذي قال فيه الصديق رضي الله عنه لقومه لما قرؤوه عليه: " ويلكم أين يذهب بعقولكم، إن هذا كلام لم يخرج من إلٍّ " أى من إله.

وقد سخر الإمام الخطابى من مسيلمة، وما قاله عن الفيل، فقال: " يقال لصاحب الفيل: يا فائل، افتتحت قولك بالفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل، فهولت وروعت، وصعدت وصوبت، ثم أخلفت ما وعدت، وأخدجت ما ولدت حين انقطعت، وعلى ذكر الذنب والمشفر اقتصرت، ولو كنت تعرف شيئًا من قوانين الكلام وأنواع المنطق ورسومه لم تحرف القول عن جهته ولم تضعه في غير موضعه، أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة لأمر عظيم

(١) ثرد الخبز ثردا: فته ثم بله بمرق.

الشأن فائق الوصف متناهى الغاية في معناه لقول الله تعالى:{ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣} [الحاقة: ١ - ٣]،{ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣} [القارعة: ١ - ٣]، فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة التي أسلفها وصدر الخطبة بها، فقال:{ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥} [القارعة: ٤، ٥]، إلى آخر السورة، وأنت علقت هذا القول بدابة يدركها البصر في مدى اللحظة ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر، ثم اقتصرت من عظيم ما فيها من العجب على ذكر المشفر والذنب، فما أشبه قولك هذا إلا بما أنشدته بعض شيوخنا لبعض نظرائك:

وأنى وأنى ثم أنى وأنـــــــــــــــى ::: إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

أى صغير ما أتيت به عجز كلامك من عظيم ما أسميته في صدره، ويسير ما رضيت به في آخره من كثير ما أنميته في أوله، وإذ قد دلتك فيالة رأيك وسوء اختيارك على معارضة القرآن بذكر الفيل وأوصافه، فهلا أتيت بما هو أشف قليلا، وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى، فتذكر ما أعطيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التي بها تفهم سائسها ما يومئ به إليها من تدبيره، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها، وهلا قرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول وبسنانهما تطعن وتجرح، وكيف أغفلت أمر أذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها، وتذب بتحريكهما البق والذباب عن صماخيها وعينيها، وبها تروح على نواحى رأسها، وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصر رقبتها،

واندماج عنقها فإنها لو طالت لم تقل رأسها ولأوهنها ثقل حمله فإذ قد منعت امتداد العنق فقد عوضت به انسدال المشفر لتتناول به من وجه الأرض حاجتها من القوت والعلف وتدلو به شربها من الماء وتملأ كالسقاء فتنضح به أعضاؤها إذا شاءت، ثم قد منعت البروك بأن لم تجعل لها مفاصل تنثنى، ولو أنها بركت لم تقدر على النهوض إذ ليس لها عنق تتطاول بها كالبعير الذي يمنع بعنقه وينبعث ويثور فيما يشبه هذه الأمور من نعوت خلقها وعجائب تركيبها " [(١)].

قال ابن كثير – رحمه الله –: " وقد رُوِّينا عن عمرو بن العاص أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هى؟ قال: أنزل عليه:{وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ} [العصر: ١ - ٣]، قال: ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل علىّ مثلها، فقال له عمرو: وما هى؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب.

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبى ﷺ. بلغه أن رسول الله بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفى أخرى فصار ماؤه أجاجا، وتوضأ وسقى بوضوئه نخلا فيبست وهلكت، وأتى بولدان يُبرِّك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من

(١) " حول إعجاز القرآن " الدكتور على العمارى (ص ٣٧ - ٣٩).

قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه، ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمى.

وقال عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟ فقال: مه رسول الله، فقال: لا حتى أراه، فلما جاء قال: أنت مسيلمة؟ فقال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رجس، قال: أفى نور أم في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذاب وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابى الجلف حتى قتل معه يوم عقربا، لا رحمه الله " [(١)].

* * *

سير خالد ﷺ إلى مسيلمة الكذاب

قال ابن كثير - رحمه الله -: " لما رضى الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به، بعثه إلى قتال بنى حنيفة باليمامة، وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصديق خالدًا بسرية لتكون ردءًا له من ورائه، وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بنى حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفا من المقاتلة، فعجَّل عكرمة[(٢)] قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالدًا، فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له: عقربا[(٣)]

---

(١) " البداية والنهاية " (٣ /٧١٨ - ٧١٩) و " تاريخ الطبرى " (٣ / ٢٨٦).
(٢) أى: عجل بقتال بنى حنيفة.
(٣) عقربا: منزل من أرض اليمامة، وقد نزل بها مسيلمة لأنها في طرف اليمامة ودون

في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم فحشد لـه أهل اليمامـة، وجعل علـى مجنبتـى جيشـه المحكم ابـن الطفيل والرجَّال بن عنفوة بن نهشل، وكان الرجال هذا صديقه الذي شهد له أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه مسيلمة ابن حبيب في الأمر، وكان هذا الملعون من أكبر ما أضل أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، لعنهما الله، وقد كان الرجَّال هذا قد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ البقرة، وجاء زمن الردة إلى أبى بكر فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام، فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة.

وقرُب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنبتين زيدًا وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة في الليل بنحو من أربعين، وقيل ستين فارسًا، عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بنى تميم وبنى عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم فلما جيء بهم إلى خالد عن آخرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم سوى مجاعة فإنه استبقاه مقيدًا عنده لعلمه بالحرب والمكيدة، وكان سيدًا في بنى حنيفة شريفًا مطاعًا، ويقال إن خالدًا لما عُرضوا عليه قال لهم: ماذا تقولون يا بنى حنيفة؟ قالوا: نقول: منا نبى ومنكم نبى، فقتلهم إلا واحدًا اسمه سارية، فقال له: أيها الرجل إن كنت تريد عدًا بعدول هذا - أى من أهل اليمامة - خيرًا وشرًا فاستبق هذا الرجل - يعنى مجاعة بن مرارة - فاستبقاه خالد مقيدًا.

الأموال، وجعل ريف اليمامة وراء ظهره.

فلما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب[١] يشرف على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة وانهزمت الأعراب، وقد قتل الرجال بن عنفوة لعنه الله في هذه الجولة، قتله زيد بن الخطاب، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً.

وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى، فقتل شهيدًا ﷺ. وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب ﷺ، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى

(١) أى على مكان مرتفع عن الأرض.

بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه - وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شئ إلا أكله، ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوى عنقه، لا يقبل منه شيئًا، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد، وقد ميَّز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بنى أب على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاؤوا، حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم مُحكّم اليمامة - وهو محكم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها، فدخلوها وفيها عدو الله مسيلمة لعنه الله، وأدرك عبد الرحمن بن أبى بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة.

وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقونى عليهم في الحديقة فاحتملوه فوق الجحف(١) ورفعوه بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون إلى الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله، وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه،

(١) الجحف: المراد بها التروس.

فتقدم إلى وحشى بن حرب - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: واأمير الوضاءة، قتله العبد الأسود، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفى المعركة قريبًا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: واحد وعشرون ألفًا، وقتل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة، والله أعلم.

وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلما مروا بالرجال بن عنفوة، قال له خالد: أهذا هو؟ قال: لا، والله هذا خير منه، هذا الرجال بن عنفوة، ثم مروا برجل أصفر أخنس، فقال: هذا صاحبكم، فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا، ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى، ثم عزم على غزو الحصون ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة فقال: إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحنى عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فقال: دعنى حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح فقال: اذهب، فسار إليها مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة فانتظر الصلح، ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبى، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى على بن أبى طالب بجارية

منهم[١] وهى أم ابنه محمد الذي يقال له: محمد ابن الحنفية ﵁.

قال خلق من السلف: كانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن قانع: في آخرها، وقال آخرون: كانت سنة ثنتى عشرة، والجمع بينها أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة ثنتى عشرة، والله أعلم[٢].

* * *

(١) وهى ابنة لربيعة بن يجير.
(٢) " البداية والنهاية " (٣ / ٧١٥ - ٧١٨) بتحقيقى، باختصار يسير.

فتوح خالد ﷺ في العراق

ما إن انتهت حروب الردة واستقرت الأمور في الجزيرة العربية التي كانت ميدانًا لها حتى شرع أبو بكر ﷺ في فتح بعض البلاد لكى ينعم أهل هذه البلاد بنعمة الإسلام.

وقد ابتدأ أبو بكر ﷺ هذه الفتوحات ببلاد العراق، وكان خالد ﷺ بعد أن انتهى من أمر بنى حنيفة قد أقام بواد من أودية اليمامة يقال له: الوبر حتى جاءه أمر أبى بكر ﷺ بالتوجه إلى العراق لفتح بلاد فارس.

قال ابن كثير – رحمه الله –: " لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند وهى الأبلة[1]، ويأتى العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذوا منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم، وأمره أن لا يكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين.

وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمدادًا لخالد ﷺ.

(١) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهى أقدم من البصرة لأن البصرة مصرت في أيام عمر بن الخطاب، وكانت الأبلة حينئذ مدينة.

وقد ذكر المدائنى بإسناده أن خالدًا توجه إلى العراق في المحرم سنة اثنتى عشرة، فجعل طريقه البصرة، فيها قطبة بن قتادة، وعلى الكوفة المثنى بن حارثة الشيبانى(١).

وقال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان: إن أبا بكر كتب إلى خالد أن يسير إلى العراق، فمضى خالد يريد ا لعراق حتى نزل بقُريَّات من السواد يقال لها: بانقيا وباروسما، وصاحبها حابان، فصالحه أهلها. قلت: وقد قتل منهم المسلمون قبل الصلح خلقًا كثيرًا، وكان الصلح على ألف درهم، وقيل: دينار في رجب، وكان الذي صالحه بُصبْهُرَى بن صلوبا، ويقال: صلوبا بن بصبهرى، فقبل منهم خالد، وكتب لهم كتابًا(٢) ثم أقبل حتى نزل الحيرة(٣) فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس بن حية الطائى، وكان أمَّره عليها كسرى بن النعمان ابن المنذر، فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى

(١) كان المثنى بن حارثة قد قدم على أبى بكر ليحثه على محاربة الفرس، وقال له: ابعثنى على قومى، ففعل ذلك أبو بكر، فرجع المثنى وشرع في الجهاد بالعراق، ثم إنه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر ☺ يطلب منه أن يمده بمجاهدين، فأرسل أبو بكر رسالة إلى المثنى يقول له فيها: ".. أما بعد، فإني قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده ووازره وكانفه، ولا تعصين له أمرا، ولا تخالفن له رأيًا، فإنه من الذين وصف الله تبارك وتعالى في كتابه:{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: ٢٩]، فما أقام معك فهو الأمير، فإن شخص عنك فأنت على ما كنت عليه - أى من إمرة قومه - ولما وصلت هذه الرسالة إلى المثنى سارع بالانضمام إلى جيش خالد ☺.

(٢) قال الطبرى – رحمه الله –: " كتب لهم كتابًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السَّوادى - ومنزله بشاطئ الفرات - إنك آمن بأمان الله - إذ حقن دمه بإعطاء الجزية - وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك، ومن كان في قريتك - بانقيا وباروسما - ألف درهم، فقبلتها منك، ورضى من معى من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ، وذمة المسلمين على ذلك "، " تاريخ الطبرى " (٣/ ٣٤٤).

(٣) الحيرة: كانت على ثلاثة أميال من الكوفة.

الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم، فقال له قبيصة: ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية. فقال له خالد: تبًا لكم إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، ثم صالحهم على تسعين ألفًا، وفى رواية: مائتى ألف درهم، فكانت أول جزية أخذت من العراق وحملت إلى المدينة هى والقريات قبلها التي صالح عليها ابن صلوبا.

قلت: وقد كان مع نائب كسرى على الحيرة ممن وفد إلى خالد، عمرو عبد المسيح بن حبان بن بقيلة، وكان من نصارى العرب، فقال له خالد: من أين أثرك؟ قال: من ظهر أبى، قال: ومن أين خرجت؟ قال: من بطن أمى، قال: ويحك على أى شئ أنت؟ قال: على الأرض، قال: ويحك وفى أى شئ أنت؟ قال: في ثيابى، قال: ويحك تعقل؟ قال: نعم وأقيد، قال: إنما أسألك، قال: وأنا أجيبك، قال: أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم، قال: فما هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجئ الحليم فينهاه، ثم دعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، فأجابوا إلى الجزية بتسعين أو مائتى ألف كما تقدم، ثم كتب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن: من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فالحمد لله الذي فض خدمكم وسلب ملككم، ووهَّن كيدكم، وإن من

صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي لـه مـا لنـا وعليـه مـا علينـا، أمـا بعد، فـإذا جـاءكم - كتـابى - فـابعثوا إلـى بـالرُّهن، واعتقدوا منى الذمة، وإلا فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم أقوامًا يحبـون الموت كما تحبون أنتم الحياة، فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون.

* * *

معركة ذات السلاسل

عن المغيرة بن عيينة - وكان قاضى أهل الكوفة - قال: فرَّق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحد، فسَّرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد - يعنى في آخرهم - ودليله رافع فواعدهم جميعا الحفير [(١)] ليجتمعوا به، ويصادموا عدوهم، وكان فرج الهند أعظم فروج فارس بأسًا وأشدها شوكة، وكان صاحبه يحارب في البر والهند في البحر وهو هرمز، فكتب إليه خالد فبعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى، وأردشيربن شيرى، وجمع هرمز، وهو نائب كسرى جموعًا كثيرة وسار بهم إلى كاظمة، وعلى مجنبتيه قباذ وأنوشجان - وهما من بيت الملك - وقد تفرق الجيش في السلاسل لئلا يفروا، وكان هرمز هذا من أخبث الناس طوية وأشدهم كفرًا، وكان شريفًا في الفرس، وكان الرجل كلما ازداد شرفا زاد في حليته، فكانت قلنسوة هرمز بمائة ألف.

وقدم خالد بمن معه من الجيش وهم ثمانية عشر ألفًا فنزل تجاههم على غير ماء فشكى أصحابه ذلك، فقال: جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين، فلما استقر بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم، بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء، فقوى المسلمون بذلك، وفرحوا فرحًا شديدًا، فلما تواجه الصفان وتقاتل الفريقان، ترجل

(١) الحفير: ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة (معجم البلدان) لياقوت (٢ / ٢٧٧).

هرمز ودعا إلى النزال، فترجل خالد وتقدم إلى هرمز، فاختلف ضربتين واحتضنه خالد، وجاءت حامية هرمز فما شغله عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز فأناموهم، وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل واستحوذ المسلمون وخالد على أمتعتهم وسلاحهم فبلغ وقر ألف بعير. وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لكثرة من سلسل بها من فرسان فارس، وأفلت قباذ وأنوشجان، ولما رجع الطلب نادى منادى خالد بالرحيل فسار بالناس وتبعته الأثقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم(١) وبعث بالفتح والبشارة مع زر بن كليب إلى الصديق، وبعث معه بفيل، فلما رآه نسوة أهل المدينة جعلن يقلن أمن خلق هذا أم شئ مصنوع؟ فرده الصديق مع زر، وبعث أبو بكر لما بلغه الخبر إلى خالد، فنفله سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وكانت مرصعة بالجوهر، وبعث خالد الأمراء يمينًا وشمالاً يحاصرون حصونًا هنالك ففتحوها عنوة وصلحًا، وأخذوا منها أموالاً جمة، ولم يكن خالد يتعرض للفلاحين - من لم يقاتل منهم - ولا أولادهم، بل للمقاتلة من أهل فارس.

* * *

(١) لأن البصرة لم تبن إذ ذاك.

معركة المذار[1] [الثِّنْى]

ثم كانت وقعة المذار في صفر من هذه السنة. ويقال لها:وقعة الثنى، وهو النهر.

وكان سببها أن هرمزًا كان قد كتب إلى أردشير وشيرى بقدوم خالد نحوه من اليمامة، فبعث إليه كسرى بمدد مع أمير يقال له: قارن ابن قريانس، فلم يصل إلى هرمز حتى كان من أمره مع خالد ما تقدم[2] وفر من فر من الفرس، فتلقاهم قارن، فالتفوا عليه فتذامروا واتفقوا على العود إلى خالد، فساروا إلى موضع يقال له: المذار، وعلى مجنبتى قارن قباذ وأنوشجان، فلما انتهى الخبر إلى خالد، قسم ما كان معه من أربعة أخماس غنيمة يوم ذات السلاسل، وأرسل إلى الصديق بخبره مع الوليد بن عقبة، وسار خالد بمن معه من الجيوش حتى نزل على المذار، وهو على تعبئته، فاقتتلوا قتال حنق وحفيظة، وخرج قارن يدعو إلى البراز، فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من الأمراء، فقتل معقل بن الأعشى ابن النباش قارنًا، وقتل عدى بن حاتم قباذ، وقتل عاصم أنوشجان، وفرت الفرس وركبهم المسلمون في ظهورهم فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفًا، وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه، وأقام خالد بالمذار، وسلب الأسلاب إلى من قتل، وجمع بقية الغنيمة وخمَّسها، وبعث بالخمس والفتح والبشارة إلى الصديق مع سعيد بن النعمان، وأقام خالد هناك حتى قسم أربعة الأخماس، وسبى ذرارى من حضره من المقاتلة، دون الفلاحين فإنه

(١) المذار في ميسان بين واسط والبصرة، وهى قصبة ميسان، والثنى من كل نهر منعطفه، ويقال الثنى اسم لكل نهر.
(٢) وهو منازلة خالد بن الوليد لهرمز وقتله.

أقرهم بالجزية، وكان في هذا السبى حبيب أبو الحسن البصرى، وكان نصرانيًا، وما فنَّة مولى عثمان، وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة، ثم أمَّر على الجند سعيد بن النعمان وعلى الجزية سويد بن مقرّن، وأمره أن ينزل الحفير ليجبى إليه الأموال، وأقام خالد يتجسس الأخبار عن الأعداء.

* * *

معركة الولجة [(١)]

ثم كان أمر الولجة في صفر أيضًا من هذه السنة، وذلك لأنه لما انتهى الخبر بما كان المذار من قبل قارن وأصحابه إلى أردشير وهو ملك الفرس يومئذ، بعث أميرًا شجاعًا يقال له: الأندرْزَغَر، وأمده بجيش آخر مع أمير يقال له: بهمنجاذويه، فساروا حتى بلغوا مكانًا يقال له: الولجة، فسمع بهم خالد، فصار بمن معه من الجنود، ووصى من استخلفه هناك بالحذر وقلة الغفلة، فنازل أنذرزغر ومن ناشب معه، واجتمع عنده بالولجة، فاقتتلوا قتالاً هو أشد مما قبله، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ، واستبطأ كمينه الذي كان قد أرصدهم وراءه في موضعين، فما كان إلا يسيرًا حتى خرج الكمينان من ها هنا ومن هاهنا، فقرت صفوف الأعاجم، فأخذهم خالد من أمامهم والكمينان من ورائهم، فلم يعرف رجل منهم مقتل صاحبه، وهرب الأنذرزغر من الموقعة فمات عطشًا، وقام خالد في الناس خطيبًا فرغبهم في بلاد الأعاجم وزهدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترون ما هاهنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل

(١) الولجة بأرض كسكر موضع مما يلى البر، وكسكر كورة واسعة، وقصبتها اليوم واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة.

الله والدعاء إلى الإسلام، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه، ثم خمس الغنيمة، وقسم أربعة أخماسها بين الغانمين، وبعث الخمس إلى الصديق، وأسر من أسر من ذرارى المقاتلة، وأقر الفلاحين بالجزية.

* * *

معركة أُليس [(١)]

ثم كانت وقعة أليس في صفر أيضًا، وذلك أن خالدا كان قد قتل يوم الولجة طائفة من بكر بن وائل، من نصارى العرب ممن كان مع الفرس، فاجتمع عشائرهم وأشدهم حنقًا عبد الأسود العجلى، وكان قد قُتل له ابن بالأمس، فكاتبوا الأعاجم، فأرسل إليهم أردشير جيشًا، فاجتمعوا بمكان يقال له أليس، فبينما هم قد نصبوا لهم سماطًا فيه طعام يريدون أكله، إذ غافلهم خالد بجيشه، فلما رأوه أشار من أشار منهم بأكل الطعام وعدم الاعتناء بخالد.

وقال أمير كسرى: بل ننهض إليه، فلم يسمعوا منه، فلما نزل خالد تقدم بين يدى جيشه ونادى بأعلى صوته لشجعان من هنالك من الأعراب: أين فلان؟ أين فلان؟ فكلهم تلكؤوا عنه إلا رجلاً يقال له: مالك بن قيس من بنى جذرة، فإنه برز إليه، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة ما جرأك علىّ من بينهم وليس فيك وفاء؟ فضربه فقتله، ونفرت الأعاجم عن الطعام وقاموا إلى السلاح فاقتتلوا قتالاً شديدًا جدًا، والمشركون يرقبون قدوم بهمن مددًا من جهة الملك إليهم، فهم

(١) أليس مصغر: نقع في أول أرض العراق من ناحية البادية.

في قوة وشدة في القتال، وصبر المسلمون صبرًا بليغًا، وقال خالد: اللهم لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقى منهم أحدًا أقدر عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم، ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم فنادى منادى خالد: الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجًا يساقون سوقًا، وقد وكّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة ويطلبهم في الغد، وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجرى بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجرى معه فتبر بيمينك، فأرسله فسال النهر دمًا عبيطًا[1]، فلذلك سمى نهر الدم إلى اليوم، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا، ولما هزم خالد الجيش ورجع من رجع من الناس، عدل خالد إلى الطعام الذي كانوا قد وضعوه ليأكلوه، فقال للمسلمين: هذا نفل فانزلوا فكلوا، فنزل الناس فأكلوا عشاء، وقد جعل الأعاجم على طعامهم مرققًا كثيرًا، فجعل من يراه من أهل البادية من الأعراب يقولون: ما هذه الرقع يحسبونها ثيابًا!!، فيقول لهم من يعرف ذلك من أهل الأرياف والمدن: أما سمعتم رقيق العيش؟ قال: بلى، قالوا: فهذا رقيق العيش، فسموه يومئذ رقاقًا، وإنما كانت العرب تسميه العود!!.

وكان كل من قتل بهذه الوقعة يوم أليس من بلدة يقال لها: أمغيشيا، فعدل إليها خالد وأمر بخرابها واستولى على ما بها، فوجدوا بها مغنمًا عظيمًا، فقسم بين الغانمين فأصاب الفارس بعد النفل ألفًا وخمسمائة غير ما تهيأ له مما قبله.

(١) دمًا عبيطًا: أى طريا.

وبعث خالد إلى الصديق بالبشارة والفتح والخمس من الأموال والسبى مع رجل يقال له: جندل من بنى عجل، وكان دليلاً صارمًا، فلما بلغ الصديق الرسالة وأدى الأمانة، أثنى عليه وأجازه جارية من السبى، وقال الصديق: يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراذيله[١]، **عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد.**

* * *

معركة الحيرة [٢]

ثم سار خالد فنزل الخورنق والسدير وبالنجف وبث سراياه هاهنا وهاهنا، يحاصرون الحصون من الحيرة يستنزلون أهلها قسرًا وقهرًا وصلحًا ويسرًا، وكان في جملة ما نزل بالصلح قوم من نصارى العرب فيهم ابن بُقيلة، وكتب لأهل الحيرة كتاب أمان، فكان الذي راوده عليه عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة[٣] ووجد خالد معه كيسًا، فقال: ما في هذا؟، وفتحه خالد فوجد فيه شيئًا - فقال ابن بقيلة: هو سم ساعة، فقال: ولم استصحبته معك؟ فقال: حتى إذا رأيت مكروهًا في قومى أكلته فالموت أحب إلى من ذلك، فأخذه خالد من يده وقال: إنه لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها، ثم قال: بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء الذي ليس يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم، وأهوى إليه الأمراء ليمنعوه منه فبادرهم فابتلعه[٤]،

---

(١) خراذيله: قطع اللحم، مفردها خرذولة.
(٢) الحيرة: بالكسر ثم السكون، وراء مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة.
(٣) سمى بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين، فقالوا: ما أنت إلا بقيلة خضراء، فاشتهر بهذا الاسم.
(٤) رواه الطبرانى في " المعجم الكبير " (٣٨٠٨، ٣٨٠٩) وأبو يعلى كما في " المطالب العلية " (٤٠٤٣) وفى سنده انقطاع لأن أبا السفر لم يسمع من خالد ﷺ.

فلما رأى ذلك ابن بقيلة قال: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد، ثم التفت إلى أهل الحيرة فقال: لم أر كاليوم أوضح إقبالا من هذا، ثم دعاهم وسألوا خالدًا الصلح، فصالحهم وكتب لهم كتابًا بالصلح[1]، وأخذ منهم أربعمائة ألف درهم عاجلة، ولم يكن صالحهم حتى سلمه كرامة بنت عبد المسيح إلى رجل من الصحابة يقال له: شُويل، وذلك أنه لما ذكر رسول الله ﷺ قصور الحيرة كأن شرفها أنياب الكلاب، فقال له: يا رسول الله هب لى ابنة بقيلة، فقال: هى لك، فلما فتحت ادعاها شويل وشهد له اثنان من الصحابة، فامتنعوا من تسليمها إليه وقالوا: ما تريد من امرأة ابنة ثمانين سنة؟ فقالت لقومها: ادفعونى إليه فإنى سأفتدى منه، وإنه قد رآنى وأنا شابة، فسلمت إليه فلا خلا بها قالت: ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة؟ وأنا أفتدى منك، فاحكم بما أردت، فقال: والله لا أفديك بأقل من عشرمائة فاستكثرتها خديعة منها، ثم أتت قومها فأحضروا له ألف درهم، ولامه الناس، وقالوا: لو طلبت أكثر من مائة ألف لدفعوها إليك، فقال: وهل عدد أكثر من عشر مائة؟!، وذهب إلى خالد وقال: إنما أردت أكثر العدد، فقال خالد: أردت أمرًا وأراد الله غيره، وإنا نحكم بظاهر قولك، ونيتك عند الله كاذبًا أنت أم صادقًا.

(١) ذكر الطبرى في تاريخه (٣ / ٣٦٤) نص هذا الصلح وهو: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًا وعمرًا ابنى عدى، وعمر بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال - وهم نقباء أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به - عاهدهم على تسعين ومائة ألف، تُقبل في كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسيسيهم، إلا من كان منهم على غير ذى يد، حبيسًا عن الدنيا، تاركًا لها، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شئ عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة، وكُتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة ودفع الكتاب إليهم ".

ولما افتتح خالد الحيرة صلى ثمانى ركعات بتسليمة واحدة، ثم جاء ابن صلوبا فصالح خالدًا على بانقيا وبسما وما حول ذلك على عشرة آلاف دينار، وجاءه دهاقين تلك البلاد فصالحوه على بلدانهم وأهاليهم، كما صالح أهل الحيرة.

واتفق في تلك الأيام التي كان قد تمكن بأطراف العراق واستحوذ على الحيرة وتلك البلدان وأوقع بأهل أليس والثنى وما بعدها بفارس ومن ناشب معهم ما أوقع من القتل الفظيع في فرسانهم، أن عدت فارس على ملكهم الأكبر أردشير وابنه شيرين فقتلوهما وقتلوا كل من ينسب إليهما، وبقيت الفرس حائرين فيمن يولوه أمرهم، واختلفوا فيما بينهم، غير أنهم قد جهزوا جيوشًا تكون حائلة بين خالد وبين المدائن التي فيها إيوان كسرى وسرير مملكته، فحينئذ كتب خالد إلى من هنالك من المرازبة وأمراء الدولة يدعوهم إلى الله وإلى الدخول إلى دين الإسلام ليثبت ملكهم عليهم، وإلا فليدفعوا الجزية، وإلا فليعلموا وليستعدوا لقدومه عليهم بقوم يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، فجعلوا يتعجبون من جرأة خالد وشجاعته، ويسخرون من ذلك لحماقتهم ورعونتهم في أنفسهم.

وقد أقام خالد هناك بعد صلح الحيرة سنة يتردد في بلاد فارس هاهنا وهاهنا، ويوقع بأهلها من البأس الشديد، والسطوة الباهرة ما يبهر الأبصار لمن شاهد ذلك، يشنف أسماع من بلغه ذلك ويحير العقول لمن يدبره.

* * *

فتح خالد ﷺ للأنبار [١]

ركب خالد في جيوشه فسار حتى انتهى إلى الأنبار وعليها رجل من أعقل الفرس وأسودهم في أنفسهم يقال له: شيرذاذ فأحاط بها خالد وعليها خندق وحوله أعراب من قومهم على دينهم، واجتمع معهم أهل أرضهم.

ولما تواجه الفريقان أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقؤوا منهم ألف عين، فتصايح الناس: ذهبت عيون الأنبار، وسميت هذه الغزوة ذات العيون، فراسل شيرذاذ خالدًا في الصلح، فاشترط خالد أمورًا امتنع شيرذاذ من قبولها،فتقدم خالد إلى الخندق فاستدعى برذايا الأموال من الإبل[٢] فذبحها حتى ردم الخندق بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فلما رأى شيرذاذ ذلك أجاب إلى الصلح على الشروط التي اشترطها خالد، وسأله أن يرده إلى مأمنه فوفّى له خالد بذلك، وخرج شيرذاذ من الأنبار، وتسلمها خالد فنزلها واطمأن بها.

* * *

(١) الأنبار: مدينة على الفرات في غربى بغداد، وقيل: سميت بالأنبار لأنه كان يجمع فيها أنابير الحنطة والشعير والتبن.
(٢) أى: ضعاف الإبل.

وقعة عين التمر (١)

لما استقل خالد بالأنبار استناب عليها الزبرقان بن بدر، وقصد عين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العرب، وحولهم من الأعراب طوائف من التمر وتغلب وإياد ومن الأقاهم وعليهم عفة بن أبى عقة، فلما دنا خالد قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا، فقال له: دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم، فلامت العجم أميرهم على هذا، فقال: دعوهم فإن غلبوا خالدًا فهو لكم، وإن غُلبوا قاتلنا خالدًا وقد ضعفوا ونحن أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأى عليهم.

وسار خالد وتلقاه عقة، فلما تواجهوا قال خالد لمجنبتيه: احفظوا مكانكم فإنى حامل - أى على عقة - وأمر حُماته أن يكونوا من ورائه، وحمل على عقة وهو يسوى الصفوف فاحتضنه وأسره وانهزم جيش عقة من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه، نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فلال نصارى الأعراب إلى الحصن فوجوده مفتوحًا فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد وأحاط بهم وحاصرهم أشد الحصار، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح فأبى إلا أن ينزلوا على حكم خالد، فنزلوا على حكمه، فجعلوا في السلاسل وتسلم الحصن، ثم أمر فضربت عنق عقة ومن كان أسر معه، وغنم جميع ما في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرقهم في الأمراء، وكان

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة.

حمران صار إلى عثمان بن عفان من الخمس، ومنهم سيرين والد محمد بن سيرين أخذه أنس بن مالك، وجماعة آخرون من الموالى المشاهير أراد بهم وبذراريهم خيرًا.

ولما قدم الوليد بن عقبة - من عند خالد - على الصديق بالخمس رده الصديق إلى عياض بن غنم مددًا له وهو محاصر دومة الجندل، فلما قدم عليه وجده في ناحية من العراق يحاصر قومًا، وهم قد أخذوا عليه الطرق فهو محصور أيضًا، فقال عياض للوليد: إن بعض الرأى خير من جيش كثيف، ماذا ترى فيما نحن فيه؟ فقال له الوليد: كتب إلى خالد يمدك بجيش من عنده، فكتب إليه يستمده، فقدم كتابه على خالد عقب وقعة عين التمر، فكتب إليه: من خالد إلى عياض إياك أريد.

لبث قليلا تأتك الحلائب[1] ::: يحملن آسادًا عليها القاشب

كتائب تتبعها كتائب

* * *

(١) الحلائب: الجماعات، يقال: أحلب القوم إذا اجتمعوا للنصرة.

وقعة دومة الجندل [١]

لما فرغ خالد من عين التمر قصد إلى دومة الجندل، واستخلف على عين التمر عويمر بن الكاهن الأسلمى، فلما سمع أهل دومة الجندل بمسيره إليهم، بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وتنوخ وكلب وغسان والضجاعم، فأقبلوا إليهم، وعلى غسان وتنوخ بن الأيهم، وعلى الضجاعم بن الحِدْرجان، وجماع الناس بدومة إلى رجلين، أكيدر بن عبد الملك[٢]، والجودى بن ربيعة، فاختلفا، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائر منه في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا قلوا أم كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعونى وصالحوا القوم، فأبو عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد وفارقهم، فبعث إليه خالد عاصم بن عمرو فعارضه فأخذه، فلما أتى به خالدًا أمر فضربت عنقه وأخذ ما كان معه، ثم تواجه خالد وأهل دومة الجندل، وعليهم الجودى بن ربيعة وكل قبيلة مع أميرها من الأعراب، وجعل خالد دومة بينه وبين جيش عياض بن غنم، وافترق جيش الأعراب فرقتين، فرقة نحو خالد، وفرقة نحو عياض، وحمل خالد على من قِبله، وحمل عياض على أولئك، فأسر خالد الجودى، وأسر الأقرع بن حابس وديعة، وفرت الأعراب إلى الحصن فملؤوه، وبقى منهم خلق ضاق عنهم، فعطفت بنو تميم على من هو خارج الحصن فأعطوهم ميرة، فنجا بعضهم وجاء خالد فضرب أعناق من وجده خارج الحصن، وأمر بضرب عنق الجودى ومن كان معه من

(١) دومة الجندل: على عشر مراحل من المدينة جهة الشام. وكان النبي ﷺ قد أرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، فهزمه خالد، وصالحه الرسول ﷺ على الجزية، ولكنه نقض العهد بعد ذلك.

(٢) وهو الذي صالحه النبي ﷺ على الجزية.

الأسارى، إلا أسارى بنى كلب فإن عاصم بن عمرو والأقرع بن حابس وبنى تميم أجاروهم.

ثم أطاف خالد بالباب فلم يزل عنه حتى اقتلعه واقتحموا الحصن فقتلوا من فيه من المقاتلة، وسبوا الذرارى فبايعوهم بينهم فيمن يزيد، واشترى يومئذ ابنة الجودى، وكانت موصوفة بالجمال، وأقام بدومة الجندل، ورد الأقرع إلى الأنبار، ثم رجع خالد إلى الحيرة.

* * *

معركة الحصيد (١)

كان خالد ﷺ أقام بدومة الجندل، فظن الأعاجم به، وكاتبوا عرب الجزيرة فاجتمعوا لحربه، وقصدوا الأنبار يريدون انتزاعها من الزبرقان، وهو نائب خالد عليها، فلما بلغ ذلك الزبرقان كتب إلى القعقاع بن عمرو نائب خالد على الحيرة، فبعث القعقاع أعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد، وبعث عروة بن أبى الجعد البارقى وأمره بالخنافس، ورجع خالد من دومة إلى الحيرة عازم على مصادمة أهل المدائن محلة كسرى، لكنه يكره أن يفعل ذلك بغير إذن أبى بكر الصديق، وشغله ما قد اجتمع من جيوش الأعاجم مع نصارى الأعراب يريدون حربه، فبعث القعقاع بن عمرو أميرًا على الناس، فالتقوا بمكان يقال له: الحصيد، وعلى العجم رجل منهم يقال له: روزبه، وأمده أميرًا آخر يقال له: زرمهر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وهُزم المشركون، فقتل منهم المسلمون خلقًا كثيرًا، وقتل القعقاع بيده زرمهر، وقتل رجل يقال له: عصمة بن عبد الله الضبى روزبه،

(١) الحصيد: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة.

وغنم المسلمون شيئًا كثيرًا، وهرب من هرب من العجم، فلجؤوا إلى مكان يقال: خنافس، فسار إليهم أبو ليلى بن فدكى السعدى، فلما أحسوا بذلك ساروا إلى المصيَّخ(١)، فلما استقروا بها بمن معهم من الأعاجم والأعارب قصدهم خالد بن الوليد بمن معه من الجنود، وقسم الجيش ثلاث فرق، وأغار عليهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير، فما شبهوا إلا بغنم مصرعة.

ثم كانت وقعة الثنى والزُّميل، وقد بيتوهم فقتلوا من كان هنالك من الأعراب والأعاجم فلم يفلت منهم أحد ولا انبعث بخبر، ثم بعث خالد بالخمس من الأموال والسبى إلى الصديق، وقد اشترى على بن أبى طالب من هذا السبى جارية من العرب، وهى ابنة ربيعة بن بجير التغلبى، فاستولدها عمر ورقية رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

معركة الفِراض (٢)

ثم سار خالد بمن معه من المسلمين إلى وقعة الفراض، وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة، فأقام هنالك شهر رمضان مفطرًا لشغله بالأعداء، ولما بلغ الروم أمر خالد ومصيره إلى قرب بلادهم حموا وغضبوا وجمعوا جموعًا كثيرة، واستمدوا تغلب وإياد والنمر، ثم ناهدوا خالدًا فحالت الفرات بينهم، فقالت الروم لخالد: اعبر إلينا، وقال خالد للروم: بل اعبروا أنتم، فعبرت الروم إليهم، وذلك للنصف من ذى القعدة سنة ثنتى عشرة، فاقتتلوا هنالك قتالاً عظيمًا بليغًا، ثم هزم الله جموع الروم وتمكن المسلمون من اقتفائهم فقتل في هذه

(١) وهى بين حوران والقلت.
(٢) الفراض: تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقى الفرات.

المعركة مائة ألف[١]، وأقام خالد بعد ذلك بالفراض عشرة أيام ثم أذن بالقفول إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير في المقدمة، وأمر شجرة بن الأغر أن يسير في الساقة[٢]، وأظهر خالد أنه يسير في الساقة، وسار خالد في عدة من أصحابه وقصد شطر المسجد الحرام وسار إلى مكة في طريق لم يسلك قبله قط حتى انتهى إلى مكة فأدرك الحج هذه السنة، ثم عاد فأدرك أمر الساقة قبل أن يصلوا إلى الحيرة، ولم يعلم أحد بحج خالد هذه السنة إلا القليل من الناس ممن كان معه، ولم يعلم أبو بكر الصديق بذلك أيضا إلا بعدما رجع أهل الحج من الموسم، فبعث يعتب عليه في مفارقته الجيش، وكانت عقوبته عنده أن صرفه من غزو العراق إلى غزو الشام [٣].

* * *

أثر فتح خالد للعراق على الأمة الإسلامية

كانت دولة الفرس تشكل قوة هائلة، وكانوا يحتقرون العرب، ولا يكترثون بهم، ولم يعلم الفرس خطأ تقديرهم لقوة العرب إلا عندما داهمهم فارس الإسلام في ديارهم، وأنزل بهم الهزائم المتتالية، فحينئذ أيقن الفرس أن الدين الإسلامى الذي اعتنقه العرب قد أحدث فيهم انقلابًا جذريًا، وأصبحوا لا يقاتلون غيرهم من أجل السطو على أموالهم وأمتعتهم، ولكنهم يقاتلون لإعلاء كلمة: لا إله إلا الله في الأرض، ومن أجل تحقيق هذه الغاية كانوا لا يهابون الموت، لأنهم

(١) وفى هذه المعركة يقول القعقاع بن عمرو:

(٢) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٣) " البداية والنهاية " بتحقيقى (٣ / ٧٣٤ - ٧٤٤) باختصار يسير.

لقينـــا بـــالفراض جمـــوع روم ::: وفـــرس غمّهـــا طـــول السـلام
أبـــدنا جمعهـــم لمـــا التقينـــا ::: وبيتنـــا بجمـــع بـــنى رزام
فما فتئت جنـود السـلم حـتى ::: رأينـــا القـــوم كـــالغنم السَّـوام

يوقنون أن الموت في سبيل الله، سينقلهم إلى مرتبة الشهداء التي يطمحون إليها، ولذلك كان خالد ﷺ يتوعد الفرس بقوله: جئتكم برجال يحرصون على الموت كما تحرصون أنتم على الحياة.

ولقد أدى فتح خالد ﷺ للعراق إلى تحرير الشعب الفارسى من طغيان الأكاسرة الذين كانوا يستذلون شعوبهم، ويبخسونهم حقوقهم، لأن خالدًا كان إذا فتح بلدًا من بلاد العراق أعطى أهلها المستضعفين الأمان، وشملهم بعطفه ورعايته، ومنعهم ممن يريدهم بسوء، فكانوا لذلك يرحبون بقدومه ويُسرون له ولا يمانعونه ويحاربونه إلا مكرهين، فهم يفضلون حكمه على حكم الأكاسرة.

وبقدر رأفة خالد على هؤلاء المستضعفين كانت شدته وعدم لينه مع المحاربين الذين يحولون بينه وبين دعوته، فاستطاع خالد بفضل الله تعالى أن يهزم هذه الدولة المتعجرفة وأن يخضعها لدولة الإسلام.

* * *

فتوح خالد ﷺ في الشام

في العام الثالث عشر للهجرة ذهب أبو بكر ﷺ لأداء مناسك الحج، وبعد مرجعه عزم على فتح الشام كما فتح العراق، فجمع أصحاب رسول الله وقام فيهم خطيبًا، فحمد الله عز وجل، وقال: " يا أيها الناس رحمكم الله تعالى: اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام وزادكم إيمانًا ويقينًا ونصركم نصرًا مبينًا، وقال فيكم:{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا} [المائدة: ٣]، واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام[١] فقبضه الله، واختار له ما لديه، ألا وإنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم، فإن رسول الله ﷺ أنبأنى بذلك قبل موته، وقال:﴿**زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغارها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها**﴾ [٢]، فما قولكم في ذلك؟ فقالوا: يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت، فإن الله تعالى فرض علينا طاعتك، فقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩]، ففرح أبو بكر ﷺ " [٣] ثم شرع في جمع الأمراء في أماكن متفرقة من جزيرة العرب، وكان قد استعمل عمرو بن العاص على صدقات قضاعة معه الوليد بن عقبة فيهم، فكتب إليه يستنفره إلى الشام: " إنى كنت قد رددتك

(١) كان النبي ﷺ قد شرع في غزو الشام، وذلك عام تبوك، حتى وصلها في حر شديد وجهد، فرجع عامه ذلك، ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد ☺ ليغزو تخوم الشام.
(٢) رواه مسلم في " الفتن وأشراط الساعة " (٢٨٨٩) عن ثوبان ☺ .
(٣) " فتوح الشام " للواقدى (١ / ١٩) ط. دار ابن خلدون بالإسكندرية.

على العمل الذي ولاكه رسول اللهﷺ مرة، وسماه لك أخرى، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك ".

فكتب إليه عمرو بن العاص: إنى سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامى بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها فارمى بى فيها.

وكتب إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك، ورد عليه مثله، وأقبلا بعد ما استخلفا في عملهما إلى المدينة، وقدم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن.

ولما اجتمع عند الصديق من الجيوش ما أراد قام في الناس خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله، ثم حث الناس على الجهاد، فقال: ألا لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهى حسبه، ومن عمل لله كفاه الله، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا إيمان لمن لا خشية له، ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به هى النجاة التي دل الله عليها، إذ نجى بها من الخزى، وألحق بها الكرامة.

ثم شرع الصديق في تولية الأمراء وعقد الألوية والرايات، فيقال: إن أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص، ثم عقد لواء يزيد بن أبى سفيان ومعه جمهور الناس، ومعه سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة، وخرج معه ماشيًا يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين وجعل له دمشق، وبعث أبا عبيدة بن الجراح على

جند آخر، وخرج معه ماشيًا يوصيه، وجعل له نيابة حمص. وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين، وأمر كل أمير أن يسلك طريقًا غير طريق الآخر، لما لحظ في ذلك من المصالح، فكان سلوك يزيد بن أبى سفيان على تبوك، ثم تبعه شرحبيل بن حسنة، ثم أبو عبيدة مددا لهما، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل العرمات من أرض الشام، وجعل الصديق يمدهم بالجيوش وأمر كل واحد منهم أن ينضاف إلى من أحب من الأمراء.

ولما انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء(١) اجتمع له جنود من الروم في جمع كثير من نصارى العرب من غيرا، وتنوخ، وبنى كلب، وسليح، ولخم وجذام، وغسان، فتقدم إليهم خالد بن سعيد، فلما اقترب منهم تفرقوا عنه ودخل كثير من الإسلام، وبعث إلى الصديق يعلمه بما وقع من الفتح فأمره الصديق أن يتقدم ولا يحجم، وأمدّه بالوليد بن عتبة وعكرمة بن أبى جهل وجماعة، فسار إلى قريب من إيلياء، فالتقى هو وأمير من الروم يقال له: ماهان فكسره، ولجأ ماهان إلى دمشق، فلحقه خالد بن سعيد، وبادر الجيوش إلى لحوق دمشق، فوصلوا إلى مرج الصفراء، فانطوت عليه مسالح ماهان وأخذوا عليهم الطريق وزحف ماهان ففر خالد بن سعيد، فلم يرد إلى ذى المروة، واستحوذ على جيشهم إلا من فر على الخيل، وثبت عكرمة بن أبى جهل، وقد تقهقر عن الشام قريبًا، وبقى ردءًا لمن نفر إليه، وأقبل شرحبيل بن حسنة من العراق من عند خالد بن الوليد إلى الصديق، فأمّره على جيشه وبعثه إلى الشام، فلما مر بخالد بن سعيد بذى المروة، أخذ جمهور أصحابه الذين هربوا معه إلى ذى المروة،

(١) تيماء: بلد في أطراف الشام.

ثم اجتمع عند الصديق طائفة من الناس، فأمّر عليهم معاوية بن أبى سفيان وأرسله وراء أخيه يزيد بن أبى سفيان، ثم أذن الصديق لخالد بن سعيد في الدخول إلى المدينة.

ولما توجهت هذه الجيوش نحو الشام أفزع ذلك الروم وخافوا خوفًا شديدًا، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر، فلما انتهى إليه الخبر قال: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وأنهم لا قِبَل لأحد بهم، فأطيعونى وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم، فنخروا من ذلك نخرة حُمر الوحش كما هى عادتهم في قلة المعرفة والرأى بالحرب، فعند ذلك سار إلى حمص، وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية صحبة الأمراء، في مقابلة كل أمير من المسلمين جيش كثيف، فبعث إلى عمرو بن العاص أخا له " تذارق " في تسعين ألفًا من المقاتلة، وبعث الدارقص إلى شرحبيل بن حسنة، وبعث اللقيقار في ستين ألفًا إلى أبى عبيدة بن الجراح، وجميع عساكر المسلمين أحد وعشرون ألفًا سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبى جهل، وكان واقفًا في طرف الشام ردءًا للناس في ستة آلاف، فسارت الروم فنزلوا الواقوصة قريبًا من اليرموك، وبعث الصحابة إلى الصديق يستمدونه ويعلمونه بما اجتمع من جيش الروم باليرموك، فكتب الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق وأن يقفل بمن معه إلى الشام، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم، فاستناب المثنى بن حارثة على العراق، وسار خالد مسرعًا في تسعة آلاف وخمسمائة، ودليله رافع بن عميرة

الطائى، فأخذ به على السماق حتى انتهى إلى قراقر[١] وسلك به أراضى لم يسلكها قبله أحد، فاجتاز البرارى والقفار، وقطع الأودية، وتصعد على الجبال وسار في غير مهيع[٢] وجعل رافع يدلهم في مسيرهم على الطريق وهى في مفاوز معطشة[٣] وعطش النوق الماء علَلاً بعد نهل[٤]، وقطع مشافرها وكعمها[٥] حتى لا تحتز رحل أدبارها، واستقاها معه، فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا ما في أجوافها من الماء، ويقال: بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها.

ووصل ولله الحمد والمنة في خمسة أيام، فخرج على الروم من ناحية تدمر فصالح أهل تدمر وأركه[٦]، ولما مر بعذراء أباحها وغنم لغسان أموالاً عظيمة وخرج من شرقى دمشق، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى[٧] فوجد الصحابة تحاربها فصالحه صاحبها وسلمها إليه، فكانت أول مدينة فتحت من الشام ولله الحمد.

وبعث خالد بأخماس ما غنم مع بلال من الحرث المزني إلى الصديق[٨].

* * *

(١) القراقر: ماء لكلب في بادية السماوة من ناحية العراق.
(٢) المهيع: الصياح في الحرب.
(٣) المفاوز: الصحراء القاحلة، وسميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والفوز.
(٤) العلل: الشربة الثانية، والنهل: أول الشرب.
(٥) كعمها: شد فاها.
(٦) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، وأركه: مدينة صغيرة بالقرب من تدمر.
(٧) بصرى: من أعمال دمشق، وهى قصبة كورة حوران.
(٨) " البداية والنهاية " (٤ / ٥ - ٦) باختصار يسير.

معركة أجنادين[١]

بعد فتح بُصرى اجتمع خالد بأبى عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان ﷺ لدراسة الموقف العسكرى ووضع خطة لجيوش المسلمين، واتفقوا على أن يسيروا إلى عمرو بن العاص حيث كان يرابط بالعربات من غور فلسطين، وكان عمرو يحاول الانسحاب بجيشه تجنبًا للاشتباك مع جيش الروم الذي كان يفوق جيشه في العدد وبعد أن درس خالد الموقف العسكرى رأى أن أمامه خيارين، فإما أن يسرع وينضم إلى جيش عمرو ويخوض وإياه معركة فاصلة فيقضى على قوة الروم الكبيرة فيتعزز الموقف العسكرى للجيش الإسلامى ويصون خطة رجعته ويحمى جناحه الأيسر ويثبت أقدام المسلمين في فلسطين، وإما أن يقف مكانه ويوعز إلى عمرو بالانضمام إليه ثم ينتظر قوات الروم التي كانت تزحف نحوه من دمشق ليخوض معها معركة فاصلة، وقد فضل خالد أن يأخذ بالخيار الأول لأن التغلب على جيش الروم في فلسطين وتشتيته يحفظ للمسلمين خط رجعتهم ويعزز مركزهم، ويجعلهم في موقف يستطيعون معه تهديد الجيش الرومى ويجعلونه يتوقع حصول حركة التفاف من خلفه فيضطر للأخذ بتدابير خاصة للحماية تشغل جانبًا من قواته فيصبح بذلك مدافعًا بعد أن كان مهاجمًا، فانحدر من اليرموك إلى سهل فلسطين متدرجًا جيش الروم حتى يصل جيش خالد فيطبقان عليه، فارتد عمرو إلى أجنادين.

وعندما وصلت قوات خالد أصبح جيش المسلمين بحدود ثلاثين ألف مقاتل، وكان وصول خالد في الوقت المناسب فما إن اصطدمت

(١) أجنادين: موضع معروف من نواحى فلسطين، وهو قريب من الفالوجة.

قوات عمرو بالروم حتى انقض خالد بقواته الرئيسية، وجرت معركة عنيفة، وكان لمهارة القائدين خالد وعمرو العسكرية دور كبير في تحقيق النصر الحاسم، حيث تم توجيه قوة اقتحامية اخترقت صفوف العدو حتى وصلت إلى قائد الروم فقتلوه، وبمقتل القائد انهارت مقاومة الروم وهربوا في اتجاهات مختلفة.

وقد كانت أجنادين أول المعارك الكبيرة في بلاد الشام بين المسلمين والروم، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى قيصر الروم هرقل وهو في حمص شعر بمدى الكارثة وكتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر بفتح الله عز وجل عليه وعلى المسلمين: لعبد الله أبى بكر خليفة رسول الله، من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين، أما بعد، سلام عليكم، فإنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنى أخبرك أيها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعًا جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صُلُبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يُفنونا أو يخرجوننا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم في كل فج وشعب وغائط، فأحمد الله على إعزاز دينه، وإذلال عدوه، وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل الكتاب إلى أبى بكر - رحمه الله - فرح به وأعجبه، وقال: الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عينى بذلك[١].

(١) " الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبى بكر الصديق " للصلابى (ص ٤٣٦ - ٤٣٨).

وكانت وقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأول سنة ثلاث عشرة[1].

* * *

(١) " البداية والنهاية " (٤ / ٧) و " تاريخ الطبرى " (٣ / ٤١٨).

معركة اليرموك

سار خالد بن الوليد ﷺ بجيشه إلى اليرموك فوجد المسلمين يقاتلون الروم تحت رايات متعددة، كل أمير على جيش: أبو عبيدة على جيش، ويزيد بن أبى سفيان على جيش، وشرحبيل بن حسنة على جيش، وعمرو بن العاص على جيش، فأراد خالد أن يجمعهم تحت راية واحدة، فقام في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: " إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده لو رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبدًا، فتعالوا فلنتعاور[١] الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعونى أليكم، فأمروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جدًا، فخرجت الروم في تعبئة لم يرى مثلها قبلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا[٢] إلى الأربعين كل كردوس ألف رجل عليهم أمير، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومع شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان، وأمّر على كل كردوس أميرًا، وعلى الطلائع - أى طلائع الجيش - قباث بن أشيم[٣] أميرًا، وعلى الأقباض[٤] عبد الله بن مسعود، والقاضى يومئذ أبو الدرداء، وقاصهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو

(١) نتعاور: نتداول.
(٢) الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل، ويقال: كردس القائد خيله أى جعلها كتيبة منه.
(٣) قباث بن أشيم، شهد بدرًا، سأله عبد الله بن مروان " أنت أكبر أم رسول الله؟ " فقال: بل رسول الله أكبر منى وأنا أسن منه.
(٤) الأقباض: جمع قبض، بفتحتين، وهو ما جمع من الغنائم.

سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بن الأسود.

وخرج الناس على راياتهم، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكنانى، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد، وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه.

ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم، وكان خالد في الخيل بين يدى الجيش فساق بفرسه إلى أبى عبيدة فقال له: إنى مشير بأمر، فقال: قل أسمع لك وأطيع. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لابد لهم من حملة عظيمة ولا محيد لهم عنها، وإنى أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرّق الخيل فرقتين، وأجعلها على الميمنة والميسرة حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءا فنأتيهم من ورائهم، فقال له: نعم ما رأيت، فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله لكى إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد، وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه موليًا فاقتلنه[١] ثم رجع إلى موقفه.

(١) لم يقصد القتل على حقيقته، ولكنه أراد حث النساء على المبالغة في رد الفارين.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، وشرِّعوا الرماح واستتروا بالدرق[1]، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل القرآن، ومتحفظى الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالأمانى، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله:{ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ}
[النور: ٥٥]، فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوكم وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى بالإحسان إحسانًا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كَفْرًا وقصرًا قصرًا، فلا يهولكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموه الشّدة تطايروا تطاير أولاد الحجل.

(١) الدرق: الصلب من الشيء.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده[١] شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غدًا إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبرارى، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هى الحصون، ثم ذهب إلى النساء فوصاهم، ثم عاد فنادى: يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله ﷺ، والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، ثم سار إلى موقفه.

وقد وعظ الناس أبو هريرة أيضًا فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن أحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم.

وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوس ويقول: الله الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك.

(١) كان عدد جيش المسلمين في هذه المعركة أربعون ألفًا وقيل خمسة وأربعون، وكان عدد جيش الروم يقدر بـ (٢٤٠) ألف مقاتل.

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان ومعهما ضرار بن الأزور والحارث بن هشام وأبو جندل بن سهيل، ونادوا: إنما نريد أميركم لنجتمع به، فأذن لهم في الدخول على تذارق، وإذا هو جالس في خيمة من حرير، فقال الصحابة: لا نستحل دخولها، فأمر لهم بفرش بسط من حرير، فقالوا: ولا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبوا وتراضوا على الصلح، ورجع عنهم الصحابة بعدما دعوهم إلى الله عز وجل فلم يتم ذلك.

وذكر الوليد بن مسلم أن ماهان(١) طلب خالدًا ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجَهْد والجوع، فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أن لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك، فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كان نُحدث به عن العرب، ثم تقدم خالد إلى عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو - وهما على مجنبتى القلب - أن ينشئا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز، وتنازل الأبطال، وتجاولوا وحمى الحرب وقامت على ساق.

هذا وخالد على كردوس من الحماة الشجعان الأبطال بين يدى الصفوف، والأبطال يتصاولون من الفريقين بين يديه، وهو ينظر

(١) ماهان أو باهان: هو أحد القادة الذين عينهم هرقل لقتال المسلمين في اليرموك.

ويبعث إلى كل قوم من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل ويدبر أمر الحرب أتم تدبير.

وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى، فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه، ثم جاؤوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل من الأولى، وجرح يومئذ جرحين بن كتفيه.

وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم،وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء.

وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدبريجان، وكان عدو الله متنسكًا فيهم، فحمل على الميمنة وفيها الأزد، ومذحج وحضرموت، وخولان، فثبتوا حتى صدوا أعداء الله، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فزال المسلمون من الميمنة إلى ناحية القلب، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت صور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، وانكشف زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا من أمامهم الروم(١) وأشغلوهم عن اتباع من

(١) نهنهوا من أمامهم الروم: أى زجروهم من أمامهم.

انكشف من الناس، واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة، وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول:

يا هاربًا عن نسوة تقّيات ::: فعن قليل ما ترى سبيّات

ولا حصيات ولا رضيات

فتراجع الناس إلى مواقفهم.

وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا، فلم تر يوم اليرموك إلا مخًا ساقطًا، ومعصمًا نادرًا، وكفًا طائرة من ذلك الموطن، ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب فقتل من الروم في حملته هذه ستة آلاف، ثم قال: والذى نفسى بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإنى لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم، ثم اعترضهم فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فانكشفوا وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

وخرج جَرجَة[(١)] أحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجة: يا خالد أخبرنى فاصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل نزّل الله علي نبيكم سيف من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا، قال: ففيم سميت سيف الله؟ [(٢)].

(١) هو: جرجة بن توذر أحد أمراء الروم الكبار.
(٢) لعل بعض القوم أشاعوا في بلاد الشام أن خالدًا في يده سيف نزل من السماء يهزم به

قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه، وبعضنا كذَّبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لى: أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجة: يا خالد إلى ما تدعون؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل.

قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم، قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله، فقال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا، قال جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال: نعم وأفضل، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

أعداءه، أعطاه له رسول الله ﷺ، وأخذوا ذلك مما اشتهر به خالد بين المسلمين أنه سيف الله المسلول.

فقال جرجة: بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى؟

قال: تالله لقد صدقتك وإن الله ولى ما سألت عنه.

فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال: علمنى الإسلام، فمال له خالد إلى فسطاطه فسن عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حملة، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية[١] عليهم عكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام[٢] - وهو عم عكرمة - فركب خالد وجرجة معه، والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس وثابوا[٣] وتراجعت الروم إلى مواقفهم، وزحف خالد بالمسلمين حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، وصلى المسلمون صلاة الظهر وصلاة العصر إيماء، وأصيب جرجة رحمه الله ولم يصل لله إلا تلك الركعتين مع خالد ﷺ، وضعضعت الروم عند ذلك، ثم نهد خالد بالقلب حتى صار في وسط خيول الروم، فعند ذلك هربت خيالتهم، وأسندت بهم في تلك الصحراء، وأفرج المسلمون بخيولهم حتى ذهبوا.

(١) المحامية: أى الذين يقفون أمام فسطاط خالد لحمايته.
(٢) عندما رأى عكرمة بن أبى جهل زحف الروم على المسلمين قال: لقد قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن، وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى في الناس وقال: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى جرحوا جميعا، وقُتل منهم خلق، منهم ضرار بن الأزور ♦ جميعًا.
(٣) ثابوا: أى رجعوا لقتال الروم.

وأخَّر المسلمون صلاتى العشائين - المغرب والعشاء - حتى استقر الفتح، وعمد خالد إلى رحل الروم، وهم الرجالة ففصلوهم عن آخرهم حتى صاروا كأنهم حائط قد هدم، ثم تبعوا من فر من الخيالة واقتحم خالد عليهم خندقهم، وجاء الروم في ظلام الليل إلى الواقوصة، فجعل الذين تسلسلوا وقيدوا بعضهم ببعض إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه.

قال ابن جرير وغيره: فسقط فيها وقتل عندها مائة ألف وعشرون ألفًا سوى من قتل في المعركة.

وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج[١] فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.

وتجلل[٢] القيقلان وأشراف من قومه من الروم ببرانسهم[٣] وقالوا: إذا لم نقدر على نصر دين النصرانية فلنمت على دينهم، فجاء المسلمون فقتلوهم عن آخرهم، وقتل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف، منهم عكرمة، وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان ابن سعيد، وضرار بن الأزور، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل ابن عمرو الدوسى. وثبت يومئذ يزيد بن أبى سفيان، وقاتل قتالاً شديدًا، وذلك أن أباه[٤] مر به فقال: يا بنى عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادى من المسلمين إلا

(١) العلوج: مفردها علج: كفار العجم.
(٢) تجلل: تغطى.
(٣) البرانس: مفردها برنس، وهو كل ثوب يكون غطاء الرأس جزء منه متصلاً به.
(٤) أبو سفيان بن حرب ☺.

محفوفًا بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمر المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بنى ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك، فقال: أفعل إن شاء الله، فقاتل يومئذ قتالاً شديدًا ﵁.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد. وأكمل خالد ليلته في خيمة تدارق أحنى هرقل - وهو أمير الروم كلهم يومئذ - هرب فيمن هرب - وباتت الخيول تجول نحو خيمة خالد يقتلن من مر بهم من الروم حتى أصبحوا، وقُتل تدارق وكان له ثلاثون سرادقًا وثلاثون رواقًا من ديباج بما فيها من الفرش والحرير، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم.

وفى هذه المعركة فقدت قلنسوة خالد بن الوليد، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، ثم وجدت فإذا هى قلنسوة خلقة، فقال خالد: " اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا رُزقت النصر " (١).

* * *

(١) رواه الحاكم (٣ / ٢٩٩)، والطبرانى وأبو يعلى كما في " مجمع الزوائد " للهيثمى (٩/ ٣٤٩) وقال: رجالهما رجال الصحيح، وقال البوصيرى: رواه أبو يعلى بسند صحيح.

عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد

أثناء احتدام القتال بين المسلمين والروم، توفى أبو بكر ﷺ، وكان قد مرض قبل وفاته عدة أيام، " وفى أثناء هذا المرض عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب، وكان الذي كتب العهد عثمان بن عفان، وقرئ على المسلمين فأقروا به وسمعوا له وأطاعوا " [١] وبعد ما بويع عمر ﷺ بالخلافة كتب إلى عبيدة بن الجراح بعزل خالد ﷺ، وأن يتولى هو الإمارة بدلاً منه.

عن صالح بن كيسان، قال: كان أول كتاب كتبه عمر حين وُلى إلى أبى عبيدة يوليه على جند خالد: أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلى في كثف[٢] من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك، فغمِّضْ بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها، وإياك أن تُهلكك كما أهلكتْ من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم " [٣].

وقد ذكر ابن إسحاق أن عزل خالد بن الوليد كان بعد انتهاء معركة اليرموك، وأثناء حصار المسلمين لمدينة دمشق.

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ١٢).
(٢) الكثف: الجماعة من الناس.
(٣) " تاريخ الطبرى " (٣ /٤٣٤)، " البداية والنهاية " (٤ / ١٩).

قال الطبري: عن ابن إسحاق قال: لما فرغ المسلمون من أجنادين[١] ساروا إلى فحل[٢] من أرض الأردن، وقد اجتمعت فيها رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم، وخالد على مقدمة الناس، فلما نزلت الروم بيسان بثقوا أنهارها، وهى أرض سبخة، فكانت وحلاً، ونزلوا فحلاً - وبيسان بين فلسطين وبين الأردن - فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم، وحلت خيولهم، ولقوا فيها عناءً، ثم سلمهم الله - وسميت بيسان ذات الردغة[٣] لما لقى المسلمون فيها - ثم نهضوا إلى الروم وهم بفحل، فاقتتلوا، فهزمت الروم، ودخل المسلمون فحلاً ولحقت رافضة الروم بدمشق، فكانت فحل في ذى القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر، ثم ساروا إلى دمشق وخالد على مقدمة الناس، وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق - وقد كان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس - فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم هزم الله الروم، وأصاب منهم المسلمون ودخلت الروم دمشق، فغلقوا أبوابها، وجثم المسلمون عليها فرابطوها حتى فتحت دمشق، وأعطوا الجزية، وقد قدم الكتاب على أبى عبيدة بإمارته، وعزل خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرئ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق[٤]، وجرى الصلح على يدىْ خالد،

(١) رجح ابن إسحاق أن معركة أجنادين كانت بعد معركة اليرموك كما في هذا النص، وقال غيره إنها كانت قبل معركة اليرموك.
(٢) فحل: اسم موضع بالشام.
(٣) الردغة: الوحل الشديد.
(٤) قال ابن كثير في " البداية والنهاية " (٤ / ٢٣): " فلما وصل الكتاب إلى أبى عبيدة كتمه من خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة، فقال له خالد: يرحمك الله ما منعك أن تعلمنى حين جاءك؟ فقال: إنى كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا

وكُتب الكتاب باسمه، فلما صالحت دمشق لحق باهان - صاحب الروم الذي قاتل المسلمين - بهرقل، وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وأظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد(١).

ولم يكن عزل عمر بن الخطاب لخالد سخطة عليه، وإنما فعل ذلك خشية أن يفتتن المسلمون بالقائد المظفر خالد، لاسيما الذين دخلوا في الإسلام أثناء فتوحات خالد بن الوليد ﵁.

وقد أفصح عمر ﵁ عن سبب عزله لخالد، فقال: " إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة " (٢).

وقد استقبل خالد ﵁ نبأ عزله بالامتثال والرضى وقام بتسليم الراية لأبى عبيدة بن الجراح، وأقبل على العمل جنديًا تحت إمرته نحوًا من أربع سنوات، وكان خلال هذه السنوات نعم الجندى الذي يطيع أوامر قائده، ولم يضعف سيفه على المشركين بعد عزله عن الإمارة، فكان في حاليه - قبل العزل وبعده - سيف الله المسلول الذي سله الله على المشركين.

وقد حفظ لنا التاريخ موقفًا لخالد يدل على سمو روحه، وتفانيه في خدمة دين الله - عز وجل - وذلك " عندما طلب أبو عبيدة من خالد أن ينفذ مهمة قتالية تحت إمرته، أجابه خالد قائلاً: أنا لها إن

أريد، ولا للدنيا أعمل، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان،وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه ".

(١) " تاريخ الطبرى " (٣ / ٤٣٤ - ٤٣٥).

(٢) " تاريخ دمشق " ابن عساكر (١٦ / ٢٦٨) ط. دار الفكر، بيروت.

شاء الله تعالى، وما كنت أنتظر إلا أن تأمرنى، فقال أبو عبيدة: استحييت منك يا أبا سليمان، فقال خالد: والله لو أُمّر علىّ طفل صغير لأطيعن له فكيف أخالفك وأنت أقدم منى إيمانًا وأسبق إسلامًا؟ سبقت بإسلامك مع السابقين، وأسرعت بإيمانك مع المسارعين، وسماك رسول الله ﷺ بالأمين، فكيف ألحقك وأنال درجتك؟ والآن أشهدك أنى قد جعلت نفسى حبسًا في سبيل الله تعالى، ولا أخالفك أبدًا، ولا وليت إمارة بعدها أبدًا " (١).

* * *

(١) " فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب " الصلابى (ص ٤٨٦)، ط. دار الإيمان بالإسكندرية.

كيف فتحت مدينة دمشق!

كانت دمشق مدينة عظيمة، سميت باسم بانيها (دمشاق بن كنعان) وقد خضعت لحكم مصر، الأسرة الثامنة عشر، فهى أقدم المدن في التاريخ، وكانت مركز عبادة الأوثان، ولما دخلتها المسيحية جعلت من معبدها الوثنى كنيسة لا يضاهيها بجمالها وجلالها إلا كنيسة أنطاكية، وفى جنوب دمشق تقع أراضى البلقاء وشمالها الجولان، وهى أرض جبلية وأراضيها كلها زروع وغدران مياه، وهى مركز تجارى مهم يسكنها العرب، وكان المسلمون يعرفونها لأنهم يتجارون معها، وقد كانت مدينة دمشق مدينة محصنة، تمتاز بالمناعة، فلها سور يحيطها مبنيٌ من الحجارة وارتفاعه ستة أمتار، وفيه أبواب منيعة، وعرض المبنى ثلاثة أمتار، وقد زاد هرقل من مناعته بعد الغزو الفارسى لها، والأبواب يحكم إغلاقها، ويحيط بالسور خندق عرضه ثلاثة أمتار، ونهر بردى يؤثر على الخندق بمياهه وطينه، فأصبحت دمشق قلعة حصينة ليس من السهل اقتحامها " [١].

وأما عن كيفية فتح المسلمين لمدينة دمشق، فيقول ابن كثير: بعث أبو عبيدة جيشًا يكون بين دمشق وبين فلسطين، وبعث ذا الكلاع في جيش يكون بين دمشق وبين حمص، ليرد من يرد إليهم من المدد من جهة هرقل، ثم سار أبو عيدة من مرج الصفر قاصدًا دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وركب أبو عبيدة وعمرو بن العاص في المجنبتين، وعلى الخيل عياض بن غنم، وعلى الرجالة شرحبيل

(١) " الهندسة العسكرية في الفتوحات الإسلامية "، د. قصى عبد الرؤوف، (ص١٩٠)، نقلا عن " فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب " للصلابى (ص ٦٣٢، ٦٣٣).

بن حسنة، فقدموا دمشق وعليها نسطاس بن نسطوس، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقى وإليه باب كيسان أيضا، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية الكبير، ونزل يزيد بن أبى سفيان على باب الجابية الصغير، ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على بقية أبواب البلد، ونصبوا المجانيق والدبابات، وقد أرصد أبو عبيدة أبا الدرداء على جيش ببرزة يكونون ردءًا له، وكذا الذي بينه وبين حمص، وحاصروها حصارًا شديدًا سبعين ليلة، وقيل: أربعة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: أربعة عشر شهرًا، فالله أعلم. وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع، ويرسلون إلى ملكهم هرقل - وهو مقيم بحمص - يطلبون منه المدد، فلا يمكن وصول المدد إليهم من ذى الكلاع الذي أرصده أبو عبيدة ﵁ بين دمشق وبين حمص، فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مداد أبلسوا(١) وفشلوا وضعفوا، وقوى المسلمون واشتد حصارهم، وجاء فصل الشتاء واشتد البرد وعسر الحال وعسر القتال، فقدر الله الكبير المتعال ذو العزة والجلال أن ولد لبطريق(٢) دمشق مولود في تلك اليالى، فصنع لهم طعامًا وسقاهم بعده شرابًا وباتوا عنده في وليمته قد أكلوا وشربوا وتعبوا فناموا عن مواقفهم، واشتغلوا عن أماكنهم، وفطن ذلك أمير الحرب خالد بن الوليد، فإنه كان لا ينام ولا يترك أحدًا ينام، بل مراصد لهم ليلاً ونهارًا، وله عيون وقصاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحًا ومساءً، فلما رأى خمدة تلك الليلة، وأنه لا يقاتل على السور أحد كان قد أعد سلالم من حبال فجاء هو وأصحابه من الصناديد(٣) الأبطال،

(١) أبلسوا: أى يئسوا.
(٢) البطريق: بكسر الباء، هو القائد من قواد الروم.
(٣) الصناديد: مفردها الصنديد، وهو السيد الشجاع.

مثل القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدى، وقد أحضر جيشه عند الباب، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا من فوق السور فارقوا إلينا، ثم نهد هو وأصحابه فقطعوا الخندق سباحة بقِرَب في أعناقهم، فنصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرفات، وأكدوا أسافلها خارج الخندق، وصعدوا فيها، فلما استووا على السور رفعوا أصواتهم بالتكبير، وجاء المسلمون فصعدوا في تلك السلالم، وانحدر خالد وأصحابه الشجعان من السور إلى البوابين فقتلوهم، وقطع خالد وأصحابه أغاليق[١] الباب بالسيوف وفتحوا الباب عنوة، فدخل الجيش الخالدى من الباب الشرقى، ولما سمع أهل البلد التكبير ثاروا وذهب كل فريق إلى أماكنهم من السور، لا يدرون ما الخبر، فجعل كلما قدم أحد من أصحاب الباب الشرقى قتله أصحاب خالد، ودخل خالد البلد عنوة فقتل من وجده وذهب أهل كل باب فسألوا أميرهم الذي عند الباب من خارج الصلح - وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة[٢] فيأبون عليهم - فلما دعوهم إلى ذلك أجابوهم.

ولم يعلم بقية الصحابة ما صنع خالد، ودخل المسلمون من كل جانب وباب فوجدوا خالدًا وهو يقتل من وجده، فقالوا له: إنا قد أمّناهم " [٣].

وكان فتح دمشق في سنة أربع عشر للهجرة، وكتب أبو عبيدة لأهل دمشق كتابا بالصلح.

---

(١) الأغاليق: هى ما يغلق به الباب ليعسر فتحه كالمزاليج.
(٢) أى دعوهم للصلح على مقاسمة الدينار والعقار.
(٣) " البداية والنهاية " (٤ / ١٩ - ٢١) بتحقيقى، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

قال ابن كثير: " ثم إن أبا عبيدة بعث خالد بن الوليد إلى البقاع ففتحه بالسيف، وبعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون، وعلى الروم رجل يقال له " سنان " تحدر على المسلمين من عقبة بيروت فقُتل من المسلمين يومئذ جماعة من الشهداء فكانوا يسمون " عين ميسنون " عين الشهداء.

واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان كما وعده بها الصديق " (١).

* * *

وقعة مرج الروم

لما فرغ أبو عبيدة بن الجراح ﷺ من عقد الصلح مع أهل دمشق، وتولية يزيد بن أبى سفيان عليها، سار هو وخالد بن الوليد قاصدين إلى حمص حسب ما أمر به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فسارا حتى نزلا على ذى الكلاع.

وعندما علم هرقل بمسير أبى عبيدة وخالد إلى حمص أرسل جيشًا لمحاربة جيش المسلمين بقيادة بطريق يقال له: توذرا، فنزل بجيشه في مكان يسمى مرج الروم، فحاربه أبو عبيدة، وفى أثناء القتال جاء جيش آخر كثير العدد من قبل هرقل بقيادة رجل يقال له شنس، فنازله أبو عبيدة، وانشغلوا به عن توذرا، فسار توذرا بجيشه إلى دمشق ليحارب يزيد بن أبى سفيان.

قال الطبرى: وأتى خالدًا الخبر أن توذرا قد رحل إلى دمشق، فأجمع رأيه ورأى أبى عبيدة أن يُتبعه خالد، فأتبعه خالد من ليلته في

(١) المصدر السابق (٤ / ٢٤).

جريدة، وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان الذي فعل، فاستقبله فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون، فأخذهم من خلفهم، فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم، فأناموهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، فأصاب المسلمون ما شاءوا من ظَهْرٍ وأداة وثياب، وقسم ذلك يزيد بن أبى سفيان على أصحابه وأصحاب خالد، ثم انصرف يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبى عبيدة، وقد قتل توذرا، وقال خالد:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا ::: وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أردنا الغيضة الأُكَيْدرا

وقد ناهد أبو عبيدة بعد خروج خالد في أثر توذر شنس، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتلهم مقتلة عظيمة، وقتل أبو عبيدة شنس، وامتلأ المرج من قتلاهم، فأنتنت منهم الأرض، وهرب من هرب منهم، فلم يفلتهم وركبوا أكساءهم[١] إلى حمص[٢].

* * *

(١) الأكساء هنا: الأدبار، يريد أنهم تتبعوهم.
(٢) " تاريخ الطبرى " (٣ / ٥٩٨ - ٥٩٩).

وقعة حمص

بعد انتهاء موقعة مرج الروم عزم أبو عبيدة على السير إلى حمص لتتبع الروم، فنزل حولها وحاصرها، ثم تبعه خالد بن الوليد، فأحكموا الحصار على حمص وكان هذا الحصار في وقت الشتاء والبرد الشديد، وصابر أهل حمص لعل جيش المسلمين يتراجع عن المدينة من شدة البرد، ولكن جيش المسلمين صبر على البرد ولم يتراجع.

قال ابن كثير: " وصبر الصحابة صبرًا عظيمًا بحيث أنه ذكر غير واحد أن من الروم من كان يرجع، وقد سقطت رجله وهى في الخف، والصحابة ليس في أرجلهم شئ سوى النعال، ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا أصبع أيضًا، ولم يزالوا كذلك حتى انسلخ فصل الشتاء، فاشتد الحصار، وأشار بعض كبار أهل حمص عليهم بالمصالحة فأبوا عليه ذلك، وقالوا: أنصالح والملك منا قريب؟ فيقال إن الصحابة كبروا في بعض الأيام تكبيرة ارتجت منها المدينة حتى تفطرت منها بعض الجدران، ثم تكبيرة أخرى فسقطت بعض الدور، فجاءت عامتهم إلى خاصتهم، فقالوا: ألا تنظرون إلى ما نزل بنا، وما نحن فيه؟ ألا تصالحون القوم عنا؟ قال: فصالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق، على نصف المنازل، وضرب الخراج على الأراضى وأخذ الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقر.

وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى عمر مع عبد الله بن مسعود، وأنزل أبو عبيدة بحمص جيشًا كثيفًا يكون بها مع جماعة من الأمراء، منهم بلال والمقداد، وكتب أبو عبيدة إلى عمر يخبره بأن هرقل قد قطع الماء إلى الجزيرة، وأنه يظهر تارة ويخفى أخرى، فبعث إليه عمر يأمر بالمقام ببلده.

* * *

وقعة قنِسَّرين [(١)]

لما فتح أبو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما جاءها ثار إليها أهلها ومن عندهم من نصارى العرب، فقاتلهم خالد فيها قتالاً شديدًا، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، فأما من هناك من الروم فأبادهم وقتل أميرهم ميناس، وأما الأعراب فإنهم اعتذروا إليه بأن هذا القتال لم يكن عن رأينا، فقبل منهم خالد وكف عنهم، ثم خلص إلى البلد فتحصنوا فيه، فقال لهم خالد: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا، ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه، ولله الحمد.

فلما بلغ عمر ما صنعه خالد في هذه الوقعة قال: يرحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال منى، والله إنى لم أعزله عن ريبة ولكن خشيت أن يوكل الناس إليه.

وفى هذه السنة[(٢)] تقهقر هرقل بجنوده وارتحل عن بلاد الشام إلى بلاد الروم، وكان هرقل كلما حج إلى بيت المقدس وخرج منها يقول: عليك السلام يا سورية، تسليم مودع لم يقض منك وطرًا وهو عائد، فلما عزم على الرحيل من الشام وبلغ الرها، طلب من أهلها أن يصحبوه إلى الروم، فقالوا: إن بقاءنا هاهنا أنفع لك من رحلينا معك، فتركهم، فلما وصل إلى شمشان وعلا على شرف هنالك التفت إلى نحو بيت المقدس وقال: عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعد إلا أن أسلم عليك تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومى أبدًا، إلا خائفًا

(١) قنسرين: بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده، وقد كسره قوم، وهو كورة بالشام منها حلب بينهما مرحلة من جهة حمص. " معجم البلدان " (٧ / ١٦٩).
(٢) وهى سنة ست عشرة للهجرة.

حتى يولد المولود المشؤوم، وياليته لم يولد، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم!! ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية واستقر بها ملكه.

وقد حرَّم الله على الروم أن يملكوا بلاد الشام برمتها إلى آخر الدهر، كما ثبت به الحديث في الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله﴾** (١).

وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه كما رأيت، وسيكون ما أخبر به جزمًا لا يعود ملك القياصرة إلى الشام أبدًا، لأن قيصر علم جنس عند العرب يطلق على كل من ملك الشام مع بلاد الروم، فهذا لا يعود أبدا " (٢).

* * *

(١) رواه البخارى في " المناقب " (٣٦١٩). ومسلم في " الفتن " (٢٩١٨).
(٢) " البداية والنهاية " (٤ / ٥١، ٥٢) باختصار يسير.

وفاة خالد بن الوليد ﷺ

توفى خالد بن الوليد ﷺ سنة إحدى وعشرين للهجرة، واختلف في مكان موته، فقيل: إنه توفى بالمدينة، وقيل: إنه توفى بحمص، وهو القول المشهور عن الجمهور.

قال أبو الزناد: مات بحمص سنة إحدى وعشرين، وكان قدم قبل ذلك معتمرا ورجع(١).

ولما حضرته الوفاة ﷺ بكى وقال: " لقيت كذا وكذا زحفًا وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء " (٢).

وقال نافع: لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغُلامه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظننا به(٣).

وهكذا انتهت حياة سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ، والذى لم يقهر في جاهلية ولا إسلام كما قال ابن كثير رحمه الله(٤).

* * *

(١) " سير أعلام النبلاء " (١ / ٣٨٣).
(٢) " تاريخ دمشق " (١٦ / ٢٧٣)، " سير أعلام النبلاء " (١ / ٣٨٢)، " الاستيعاب " ابن عبد البر (٣ / ١٦٩).
(٣) أخرجه ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٧ / ١ / ١٢١).
(٤) في " البداية والنهاية " (٤ / ١١١).

الفهرس

الفهـرس

* * *